عبد الرحمن مجيد الربيعي

الانهار

رواية



دار العودة . بيروت

عبد الرحمن مجيد الربيعي

الأنهار

رواية

دار العودة — بيروت

الطبعة الاولى   مكتبة الثورة العربية ــ بغداد ١٩٧٤

الطبعة الثانية   دار العـــودة ــ بـــيروت

ملاحظـة: الرواية قدمتها اذاعة بغداد في مسلسل اذاعي من اعداد فاضل البياتي كما اعدها للتلفزيون العراقي في تمثيلية طويلة / نصر محمد راغب

« واني لأذكر تلك المتع فما يأخذني الأسى عليها ، ولكنني أعترف بأنها كانت حلوة عذبة . والآن وقد مرت سنوات عديدة عليها فان ذكرياتها لا تزال باقية في ناحية من نواحي هذا القلب الذي يحس بصعوبة الوفاء . »

البير كامو – « الصيف »

« وما فكرتُ قبلك في محالٍ

ولا جربتُ سيفي في هباء

« المتنبي » .

المحتوى

- ١ -

من أوراق صلاح كامل
(أيلول ١٩٧١)

يوم ..

انه هـو ٠ اسماعيل العماري بوجهـه المتجهـم الى حد التحدي ٠ وبطلعته المتشنجة نفسها ٠ اكثر من عام مر عليه هنا ٠ لم أره ولم احادثه ٠ غابت اخباره عنه ٠ واختفى عن ايامي وجهه الصديق ٠ ظننت انـه جـاء باحثا عني ٠ وانه متلهف لرؤياي كما كـان فيما مضى مـن ايـام ٠ نهضت من مكاني وانتظرته باطلالة مـرحبة ٠ ولكنـه تحاشاني وارتمى بعيدا عني على أحد مقاعد « الدولتشه فيتا » ٠ اعطاني ظهره وترك نظراته تصهل صوب البحر الهادر امامه ٠

اسماعيل العماري ينكرني اذن ؟ ويسحب نظراته عني بحدة قرفة وترفع غريب ؟ ما السر في هذا ؟ لعلها واحدة من نزواته ؟ لا ٠

كنت أظنه مشوقا إلي • متسائلا عن اخباري • عن الصحة والاحوال • عن الزمن والصدأ • عن الفن والوطن • ولكنه قابلني بهذا الوجوم الأبكم •

طرحت ظهري على الكرسي • وطلبت من نادل المقهى ان يحضر لي زجاجة بيرة • سكبتها في القدح ، وبدأت أشربها بتمهل •

كنت مرتبكا وحائرا • لماذا يتصرف هكذا معي ؟ وبدأت آكام الماضي تنبسط تحت عسف الـذكرى • أوغلت فيهـا مع فورة البيرة داخل جوفي المحتقن • ولم ..رج بجواب •

لقد كنت له دوما اليد والضماد • كما كنت المتلقي لكل نزواته المستبدة •• رفقة الجامعة •• والسياسة •• والحب •• والسكن في غرفة واحدة مـن غرف « الحيدرخانة » •• المظاهرات •• الرسم •• الليل والاحزان •• تنكر لكل هذا في لحظة واحدة ليرتمي عني بعيدا •

ومنعتني كبريائي مـن النهـوض والذهاب اليـه • لقد رآني • اجزم بهذا • امتلأت عيناه بمحياي المرحب به • انه ليس بالأعمـى أبـدا • مـا زال لعينيه حـدتهما رغـم الالم والانكسار •

ولم يمكث طويلا في جلسته حيث نهض ورمى جسده الطويل في الشارع ومضى متجها صـوب البحـر • وأخذت أراقبه حتى اختفى بين العابرين •

وعندما حضر عامر الموسوي أخبرته :

ـ اسماعيل العماري كان هنا ·

ـ انه يأتي دائما · هذا المقهى ملتقى الغرباء والمنفيين

في بيروت · وكلما حدث انقلاب في بلد عربي يصبح له زبائن جـــدد ·

ـ ولكنه تحاشاني ؟

ـ لعلك تعذره · انه مأزوم يعيش وضعا خاصا · يبدو فيه حاقدا على كل من بقي في الوطن · انه واحد من مجموعة حائرة في بيروت · لا تستطيع العودة ولا تستطيع البقاء ·

ـ ألست واحدا منها ؟

ـ الى حد ما · ولكن بعد أن تزوجت من لبنانية اختلف الامــر ·

ـ ولكن قل لي ماذا يعمل اسماعيل العماري ؟

ـ انه رسام في احدى مجلات المقاومة · ووضعه محرج كما قلت لك حتى داخل المنظمة · لو لم ابدل حيـــاتي بالزواج لكان الانتحار خاتمة حياتي · كيف أستطيع مواجهة السخرية في وجوه اصحابي في بغداد ؟ وقد حاولت الانتحار فعلا بقطع شريان في رسغي · ولكنني انقذت باعجوبة ·

وقرأت وقدة الحماس الحائر في عيني عـــامر الموسوي

وهو يحدثني بلهجته التي يخفي وراءها آمادا من المبالغة . وقلت له :

ـ قبل سفري الى صوفيا التقيت بزوجته في بغداد . وقد أخبرتني انها تنوي اللحاق به . انها حامل على ما أعتقد .

ـ أظنها ما زالت في بغداد .

ثم أردف عامر :

ـ لقد ابتعدت عن تجمعهم كليا منهم يحيطونني بجو من العداء حتى أمام زوجتي وفي بيتي .

ـ بيروت واسعة يا صديقي . وبامكانك أن تنسج حياتك على نول غير نول هؤلاء .

وهز رأسه مؤكدا :

ـ وهذا ما فعلته .

ثم استخرج عود ثقاب . وأخذ ينبش أسنانه وهو يتأمل وجوه الرواد . فرفعت اليه عيني . وتطلعت اليه : كان قد أطال شعره حتى انطرح على كتفيه . وأصبح له سالفان طويلان يغطيان جزءا كبيرا من خديه . فقلت له مداعبا :

ـ لو جئت الى بغداد لحلقوا شعرك في المطار .

وانطلقنا ضاحكين . وحاولت أن أتظارف اكثر . ولكن وجه اسماعيل العماري عاد واخترق ذاكرتي . مما دفعني لان أتساءل بالحاح :

ـ ولكن لماذا يتنكر لي اسماعيل العمارى ؟ ويتظاهر بأنه لم يرني ؟ او يعرفني ؟

وأعطاني عامر بسمة وجهه الصديق وهو يقول :

ـ قبل أيام شتمك ٠ وانهد عليك بسيل من السباب٠ وقال ان صلاح كامل انتهازي وبوق للسلطة ٠

ـ لماذا يقول هذا وهو يعرف ان المسألة ليست هكذا ؟

ـ أنت تعرف اسماعيل العماري جيدا ٠

ـ ولكن أليس من الواجب عليه أن يواجهني باتهاماته ؟

وهز عامر رأسه بالايجاب ٠ وعاد ليراقب الوجوه التي يحتشد بها المقهى ٠ وعندما تابعت بعضها عرفت منها الكثير لكثرة ما رأيت صورها في المجـــلات والجرائد منتصرة أو منتكسة في واحد من الانقلابات العسكرية التي تنوء بهـــا الساحة العربية ؛

سألني عامر الموسوي :

ـ أيهمك أمر اسماعيل العماري لهذا الحد ؟

ـ انها رفقة عمر يا عامر ويعز علي أن أراها تنتهي هكذا ٠

ـ على أية حـــال كل منكما في موقع اليوم ٠ ولستما صغيرين حتى يحتاج كل منكما لمشورة الاخر ٠ ان الزمن يسحق الكثير ٠ يسحق حتى البشر أنفسهم فلماذا تخاف مـــن تهدم علاقة أملتها ظروف خاصة ؟

يوم آخر (صباحا)

كنت حزينا بعض الشيء · ذلك الحزن الممتزج بمرارة الرثاء والالم لتهاوي الاشياء من أماكنهـــا الحقيقية · شربت فنجاني قهوة على عيني المرهقتين تفتحان جيدا لأملأهما بالوجوه الانثوية النضرة التي يموج بها «شارع الحمراء» منذ ساعات النهار الاولى ·

الساعة تقارب التاسعة صباحا ، والحر يئيد على المدينة التي غادرها جل سكانها في رحلة الصيف الى بيوتهم الجبلية ليبتردوا وينعموا بهواء الاعالي · ولم يبق فيها غير الموظفين والسياح والمتسوقين ·

لقد انترقت ليلة أمس · وامتقعت كالاخيـــذ الذي تحكم يديه الاصفاد · وانتكست في داخلي تلك الفرحة التي عدت بها من صوفيا أمام فداحة التلوث الذي نقعت فيــــه رؤوس بعض صحبي المهاجرين الى بيروت · ولم يفلحوا في أن يتماسكوا في الغربة ويستعيدوا كياناتهم التي اهتزت طويلا ولم تستقر في موضع ·

ثلاثة أيام فقط ملأتني بالاسى والرثـــاء · اذ أحسستهم موجودين في كل مكان من بيروت ·· شوارعها ·· ومقاهيها ·· صحفها وبحرها ·· يوزعون التهم والادانات · ولم أنعم بالصفاء القليل الا مع عامر الموسوي الذي يشكل نموذجـــا مغايرا لهم ·

استخرجت دفترا كبيرا كنت أحمله معي دوما · فتحته على صفحة بيضاء · وبدأت بتخطيط بعض الوجوه التي تتوزع

في مقهى «الهورس شو» متنعمة بقهوة الصبـــاح محتسية رشفاتها بتمهل مغمس بنفثـــات السكائر الاجنبية الحمراء الاعقاب ٠

رسمت وجه رجل اشيب ذي طلعة بهية ٠ عرفت فيهشاعرا عموديا من اولئك الذين كانت مجلة «الاديب» تنشر صورهم في كل عدد من أعدادها تقريبا ٠ وكان يرتدي قميصا برتقـــالي اللون ، قصير الكمين ٠ امتدت منــــه ذراعان ابيض شعر ساعديهما الغزير ٠ واجتهدت في اخراج ملامحه التي كـــانت منهمكة في قراءة الجريدة ٠ وقد افلحت بعض الشيء ، علـى الرغم من انني كنت اخطط بقلم الحبر الذي لا يمنح الرســـام درجات اللون التي يريدها لانجاح عمله ٠ وعندما انتهت الصورة وددت أن أهديها له ٠ لتحل في مجلة «الاديب» بديلا عن صورته الفوتوغرافية الخالدة ٠

ثم اخذت اقلب رسومات دفتري ٠ فتوقفت عند تسريزا بتكوفا وهي منطرحة على الرمل ٠ لقد انجزت صورتها بخطوط سريعة ٠ اظهرت استدارة عجيزتها المكتنزة وهي تلتحف الرمل ٠ وأظهرت امتداد فخذيها وتقاطع ساقيها الرشيقتين امامها ٠ وقد احتضنتهما بذراعيها اللدنين ٠ والبسمة الابدية على وجههـا الذي حجبت عينيه الصافيتين نظارة شمسية عريضة غطت حتى وجنتيها المتوردتين ٠ وبدأت بقـــراءة السطور الطويلة التي كتبتها عن لقائي بها والتي احتلت عــدة صفحات من دفتـــر التخطيطات ٠ حيث قلت فيها :

(هذه العذرية التي تمنحها الشواطيء والرمـــال للقلب المثقل ما أروعها ! وما أعظم هذا الاحساس المتعملق ، امـــام

الهدير الاسطوري الذي تحمله امواج البحر الاسود الثـــائرة وهي تصفع وجه الشاطىء المستكين • كنت اشق الماء كانني سهم يمرق رشيقا مسددا باحكام نحو هدفه • وكلما اتتني موجة رفعت جسدي الى أعلى في قفزة منتشية • ثم حطتني خفيفـــا وحنونا بعذرية الولادة الاولى • يا لها من فرحة أخاف من أن تندثر وتتلاشى •

لقد قلت لتيريزا بتكوفا وانا اقتنص عينيها الزرقاوين من بين الاجساد المشرعة امام الشمس :

ـ انها لسعادة حقا أن يجد المرء من يستمع الى صوته في هذا العالم اللاهي •

وكانت تتكىء على سيـــــاج السلم المؤدي الى مطعم الفندق • ومددت لها كلماتي ثانية متسائلا عن موعد نمضي فيه ليلتنا المقفرة • ورمتني بكلمة « ربما » عاجلة •

كنت قد التقيتها على الشاطىء في الصبـــاح • سمكة غريبة تطاردها الامواج وتجندل جدائلها الشقر الهـــــائمة • وتورق من بين الامواج عيناها كسحابتي فرح وحشي • ولكنني كبحت رغبتي في التقرب منها حيث سبقني احدهم اليها • الماني بطر وأفتى مني • لفحته الشمس فدبغته بسمرة داكنة •

ابتلعت «ربما» التي اطلقتها • وأخـــذت ادور بحثا عن صيد يلتقط الطعم مسرعا • وكنت مرهقا • انفقت وقتا طويلا في التحدث مع سيدة المانية تحب شاغال وبيكاسو وغراهـام غرين • التقينا بين فكي الموج • شدتني اليهـــا ابتسامتهـــا

المترفة • وعندما انتزعنا جسدينا من الماء شعرت بالاسى وانا أرى جسدها اللدن وقد وضح عليه زحف السنوات •

طاردت تيريزا يتكوفا في البار وممرات الفندق • قالت :

ـ سأكون في المطعم مع عائلتي بعد نصف ساعة •

واقتحمت ذلــك الصرح المكتظ بأجســـاد السائحين وقهقهاتهم ، وأصوات انفتاح سدادات الفينو البلغاري الاشقر• وعندما رأتني نادتني • ثم همست :

ـ تفضل ••

وامتثلت • ثم قدمت لي والديها • أم ناعمة سمراء اليفة الوجه • وأب ممدود صافحني بغطرسة وزهو • ثم وضع قدح الفينو أمامي •

ـ شربت زجاجتين في البار •

وضحكت وهي تقول :

ـ لتكن ثلاثا • ما الفرق ؟

فاستجبت لانشراحها وانا اهتف :

ـ نعم • ما الفرق ؟

ورفعنا كؤوسنا نخب اللقاء • وقـــالت لي وهي تقرب شفتيها من اذني :

ـ والدي لا يعرف غير البلغارية اما امي فتفهم الانكليزية

قليلا • ولكنها لا تستطيع التكلم بها •

ثم أردفت :

ـ اذا أردت أن تغادر المكان فلنغادر ؟

وهززت رأسي بالموافقة •

اقتنصت تيريزا بتكوفا يدي بالفة وكانها تعرف لمساتها منذ عصور • واحسستها مليئة بالدنيا والشباب الذي يدفعني الى قلب الاشياء وعنفوانها •

وانزوينا في الشرفة المطلة على البحر الاســـود حيث الساحل المزروع بالمظلات وذكريات الموج والرمال • اخــذت تتأملني والبسمة لم تفارق شفتيها فبدت كقطة شــامية جميلة تستكين هادئة بين يدي صاحبها • أو كفرحة شقراء تنطلق من ليل البحر •

ـ عندما رأتني أمي معك قالت ها أنت قد عثرت علــى شرقي كما كنت تأملين •

وهمست لها :

ـ الشرق يا صغيرتي ليس ذلك السحــر المراهق الذي تتصورينه • انه واقع ممتلىء • ثورات وانقلابــات وخونة وأبطال • قائمة طويلة من التناقضات الساخنة •

رقصنا بعد ذلك • شربنا • تعانقنا • وعند الساعة الثالثة انتزعنا جسدينا ولهاثنا مــن بين السكارى والراقصين • ومضينا صوب الشاطىء المظلم ثم انطرحنا على رمله الاخرس•

همست لي تيريزا بتكوفا :

ـ اتسبح ؟

ـ فكرة هائلة ٠

ـ نستطيع ان نخالف اللافتة المكتوبـة في مدخل البلاج ونتعرى تماما ٠

بلفاس ١٥ ـ ٨ ـ ١٩٧١

وانتزعت عيني من بين السطور ٠ واخذت امسح علـى جبيني باطراف اصابعي ٠ يا لهـا من ليلة تكررت بعد ذلك لاسبوع ٠ ولكن اللعبة انتهت وعاد اللاعبون ادراجهم ٠

شعرت بانني قد اغتسلت من حزني ٠ وانا اقلب صفحات الصفاء تلك ٠ ودخل علي عامر الموسوي صاخبا كعادته ليعيدني الى عالم المقهى والرواد والشارع وحرارة الجو ٠

ـ هل تأخرت ؟

ـ بعض الشيء ٠ ولكنني وجدت ما املأ به وقتي ٠

وفتحت له الدفتر لأريه صورة الشاعر ٠ تاملها قليلا ثم هتف :

ـ صورة باهرة ٠

★★★

(مساء)

في شـارع الحمراء التقيته ثانية ٠ كـان يغذ السير باتجاهي ٠ ويشق بجسده الطويل طريقا بين زحمة العابرين ٠

وعندما اصبح بجانبي أمسكت به من كتفـــه • فالتفت الي • وعندما طالعه وجهي همهم كحيوان محاصر •

ـ اسماعيل • ما بك ؟

ـ دعني أرجوك •

ـ لماذا تتصرف هكذا معي ؟ اننه صديقك اتنكر هذا؟ وقد مررت ببيروت من اجل ان اراك •

ـ اتركني أرجوك • كنا نعرف بعضنا يوما في بغداد • اما اليوم فنحن في وضع آخر •

ـ ولكنني صديقك ؟

وزفر بخشونة وكان في صدره عشرات الافاعي المحاصرة:

ـ أتقول هذا بكل وعيك ؟ لست ميدانا لحقدك يا اسماعيل •• انني صديقك ، هذا كل شيء !

وكانت أزرار قميصه مفتوحة عن زيقـــه العريض الذي يكشف عن شعر صدره الكث • وأمسكت به بقوة • ولم أدعه يفلت مني • ودخلنا مقهى « الهورس شو » •

وظل صامتا وقتا طويلا • وبين فترة واخرى يواجهني • بنظرات ذئبية قاحلة وكأنني قد قطعت اعناق كل عشيرته •

سالته :

ـ اتشرب شيئا ؟

اجاب ونظراته ما زالت بعيدة عني :

ـ لا باس ٠

وطلبت زجاجتي بيرة ٠ اخذنا نجرعهما بصمت وسرعة٠ ولم ادر كيف ابدا معه وأعاود الكلام الذي أصبح استمراره متعذرا ؟ واعتلقت وقدة الحماس في صدري بعد الزجاجة الثالثة ٠

ـ كيف أنت يا اسماعيل ؟

ـ بخير وعافية ٠

ثم اضاف بسخرية :

ـ أليس هذا ما تريده ؟

وابتسمت وانا أرد :

ـ نعم ٠ هذا ما أريده ٠

واخذ رشفة جديدة من كاسه ٠ وكانت لهجته تنم أن قناته قد بدأت تلين ٠

قال بنبرة ما زالت ساخرة :

ـ يبدو انك تتقدم ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ اسمك مبرز لدى السلطة ٠ وأصبحت توفدك في وفودها الرسمية ؟

وابتلعت سيف كلماته الجارح على مضض ثم قلت :

ـ أرجوك يا اسماعيل أن تفهمني ٠

ـ وهل تحتاج هذه الأمور الى فهم ؟

ـ تعرف بانني رسام بارز رغم كل الاعتراضات التي قد ترد على رسومي • ولم تعطني الثورة اكثر مما استحقه •

وانطلق ضاحكا وهو يقول :

ـ اتقول ثورة ؟

ـ نعم • انها ثورة وفق قناعتي وقناعة التقدميين •

وزفر بحرقة وهو يرد :

ـ اي تقدميين تعني ؟ امثالك ؟

ـ انا موقن يا اسماعيل انك تنظر للامور بتشنج كعادتك دوما • اسماعيل العماري لم يتبـــــدل ولا يزال ضمن عقلية الطالب المتطرفة بحبها وعدائيتها • الوطن اليوم يمر بظروف ايجابية جديدة • ويجب ان نعمل كلنا من اجل ترسيخها •

وتمتم بحقد :

ـ انه وطنك انت • لا وطني انا • انني اليوم انسان آخر حتى اسمي استبدلته ، فاتركوني •

ـ انت تهول الامور كثيرا • وتتحدث عن أشياء لا وجود لها •

ـ لا • هذا منطق من يعيش في امان غبي • بيت وزوجة واصدقاء ومرتب • وجهك مورد وتبدو كاقطاعي يدخل المدينة • لذا تدافع عن امتيازاتك •

ـ ولكنك كنت تملك هذه الاشياء جميعها ؟

وصرخ :

ـ نعم ٠ ولكنهم اعتقلوني ٠

ـ اتريد أن يصنعوا لك تمثالا ويضعوه في احد شوارع بغداد ؟ لقد وقفت بوجه الثورة وشتمتها منذ ساعاتها الاولى وناصبتها العداء ، وشككت فيها طيلة شهور ٠ فماذا يصنعون لك ؟

وأخذ يردد بخفوت :

ـ لم أعد أؤمن بشيء ٠ الجبهة الوطنية ٠ المؤتمرات ٠ المكاسب الثورية ٠ كل الاشياء تركتها لكم ٠ ارأيت ذاك الذي صفقنا له طويلا يوم كنا طلابا في الجامعة ؟ لقد حشا رؤوسنا بجيفارا ودوبريه والثورة المسلحة ، وقاد العشرات لينحروا في الاهوار ٠٠ وعندما احكم الطوق نجا بجلده ، ومد رأسه من شاشة التلفزيون كممثل عريق يستحق جائزة الاوسكار متحدثا عن ما يسميه نقدا ذاتيا ! قف ! أتقزز منكم كلكم ٠ آكرهكم ٠ فماذا تريدون مني ؟

ثم انطفأ مرتجفا بعد وقت قصير ٠ والقى برأسه على كتفي وهو يقول :

ـ أرجوك يا صلاح أن تنساني ٠ لا تتذكرني أبدا ٠ أنا اليوم في وضع آخر فلا تحاولوا أن تجهضوا وضعي هذا ٠ أرجوكم ٠

- ٢ -

البداية والحوار الحزين
(كانون الثاني ١٩٦٨)

كانت بغداد تضمهم · طلبة جاؤوهـــا من مدن العراق المترامية ليدرسوا الرسم · وفي رؤوسهم أحـــلام كبيرة عن الضوء والمجد · وكان البلد يفور باحداث والتظاهرات · وعندما حدثت النكسة قال سعدون الصفار :

ـ ثرثرة وخطب زعماء ليس الا · هذه هي أمجادنا · ورئيس جمهوريتنا يخطب في الجنود الذاهبين الى الجبهة على طريقة الخلفاء الراشدين ·

وعلق صلاح كامل :

ـ انه لا يمثلنا ولم نأت به · عساكر تتصارع فيما بينها ·

وكان اسماعيل العماري يستمع اليهما وهو يخطط وجه سامية بوضع جانبي · ونطق دون أن يرفع عينيه عن الرسم :

ـ عندما استمعنا الى اذاعاتنا قلنا أصبحنا في تل أبيب · ولكن واأسفاه كانت قذارة اللعبة شنيعة ·

وقال خليل الراضي :

ـ الوهم · انه داؤنا · أنا بجانب التحليل الذي يرى ضرورة التغيير في الداخل أولا · بعد ان كشفت أغلبية الانظمة عن كذبها وجبنها · خدر طويل كانوا يزرقون أجسادنا به ·· فلسطين ·· التحرير ·· عائدون ·· ولكن ماذا كانت النتيجة؟

وتناول صلاح كامل الحديث قائلا :

ولكنني ضد النقد الذاتي الذي يقارب التجريح · وأحذر من هذا النوع من الآراء االتي تصف حياتنا بالخور والعجز وتغلق كل الابواب في وجوهنا · ان ادانة كل ما هو عربي مسألة خطيرة · ها أنا أرفع صوتي وأصرخ لسنا مسؤولين عن شيء · الشعب العربي ليس المسؤول ولكنهم حكامنا فقط الذين صنعوا المأساة وكانوا فرسانها · أما نحن فلم يعطونا غير دور المتفرجين ·

وتساءلت سامية سعيد :

ـ وأحزابنا ؟

ونطق خليل الراضي :

ـ الاحزاب التقدمية لم تمنح فرصتها · وما زالت مطاردة ويحبل المئات من اعضائها في السجون ·

وقال سعدون بملل :

ـ المهم اننا وصلنا الى هذه الخاتمة · تركونا نتظاهر

بعد ان عجزوا عن كبحنا ، وعندما بحت حناجرنا وتعبنا عدنا الى مقاعدنا الدراسية · وها نحن نباشر الدوام بانتظام كطلبة نجباء واذكياء ·

ونطق صلاح :

ـ تعسا للقدر الذي جعلني آتي العالم في هذه الفترة · ليت أمي وأبي لم يتزوجا !

وبادره سعدون بالتعليق :

ـ كيف تتمنىهذا والامة العربية لن تتحرر الا برسوماتك!

ـ لا تتهكم أرجوك ·

وتردد صوت سامية سعيد قائلا :

ـ كل المسائل مدبرة · والخطط موضوعة سلفا · ولكن مـــن المؤلم ان النكسات تخلق في الغـــالب عشرات المرتدين اليائسين بين شبابنا ·

وهز خليل الراضي رأسه موافقا على مـــــا شخصته واضاف :

ـ ليس هناك أبأس من انسان جرح في آماله ·

آنذاك دخلت هدى عباس الى نادي الكلية وحيتهم · ثم أردفت متسائلة بمرح :

ـ تتحدثون بالسياسة ، اليس كذلك ؟

وقال سعدون الصفار بهزء :

ـ وبماذا تريديننا أن نتحدث ؟

أجابت بنفس لهجتها :

ـ عن معرض جمعية الفنانين الاخير مثلا ؟

ـ ليذهبوا الى الجحيم هم ومعرضهم ٠

وأخذت مكانها بجانب صلاح وهي تهمس له :

ـ أتغادر ؟

ـ لا ٠ سأحضر درس الالوان ٠ الزملاء أنجزوا الموديل وما زالت لوحتي فارغة ٠

وعلق سعدون :

ـ شاطر ٠

ـ أفضل منك على أية حال ٠

ـ اصبر قليلا وسترى ما يقوله التاريخ عني ٠ ان عصركم هذا سيسمى عصر سعدون الصفار ٠

وانطلق الجميع ضاحكين ، تاركين حناجرهم تقهقهبأقصى طاقتها ٠ وتمتم خليل الراضي :

ـ أيها الدعي ان الشتيمة الوحيدة التي توجه الى عصرنا هي في كونك قد عشت فيه ٠

وقهقهت الحناجر من جديد ٠ وتدخلت سامية سعيد وهي تغالب قهقهتها :

ـ لا تنسوا بأن تخطيطات سعدون الصفار عظيمة ، ولكن الاعتراض على ألوانه فقط ٠

وهب متسائلا :

ـ ما بها ؟

وأخذ اسماعيل العماري مهمة الرد بدلا من سامية بقوله:

ـ متسخة وقبيحة حتى استاذ الالوان كرر عليه الملاحظة مرات ٠

ـ انه يغار مني ٠ لانني سأبزه في المستقبل ٠

وصفق له صلاح وهو يردد :

ـ أؤيدك ٠ أنت عظيم ٠

وقام منحنيا وهو يتمتم :

ـ شكرا لانك لمست عبقريتي ٠

وأردفت هدي :

ـ وانا لمستها أيضا ٠

ـ طبعا ، طبعا ، لانها تشع وتتوزع حتى على المحيطين بي ٠ والا من أين لكم هذه العبقرية ؟ لا في في الرسم فقط وانما في الكلام ايضا ٠

ثم هرول مبتعدا :

ـ الى أين ؟

ـ لأبرهنن على عبقريتي في لوحة جديدة · أيها التاريخ افتح لي بابك على مصراعيه ·

★★★

بدا النادي كوكر محصور الهواء · والمفرغة التي تدور في زاويته لم تفلح في طرد الهواء الفاسد الذي يسبت في جوفه· التفت اسماعيل الى خليل الراضي وسأله :

ـ أين وصلت في موضوع الانشاء التصويري ؟

ورد بلا مبالاة :

ـ لم أهيء غير بضعة تخطيطات · أحس ان الرسم عبث لا طائل منه · وان الاشياء كلها تتلاشى أمـــــام السياسة السياسة فقط ولا شيء غيرها ·

وتدخل صلاح كامل قائلا :

ـ يرى موندريـــــان ان العمل الفني لا يعدو أن يكون تعويضا عن انعدام التوازن في الواقع الراهن ·

ثم بلع ريقه وتابع :

ـ وقد شرح موندريان رأيه هذا بأن قال ان الواقع كلما ازداد اقترابا من التوازن المطلوب تناقصت الحاجة الى الفن حتى انه لم يستبعد احتمال اختفائه ·

وعلقت هدى عباس :

ـ ليختف حتى ترتاح البشرية من صداع طويل ·

ونطقت سامية سعيد مبتسمة :

ـ وستغلق كليتنا ابوابها ٠

واردف خليل الراضي :

ـ غير ماسوف عليها ٠

وتآزز مجلسهم بقهقهات عذراء اخرى ٠ كانت تنبت من القلب الذي يصافح النهار بود ٠ وتلتقي العيون المحيطة بالمائدة المعزولة في فسحة النادي بصداقة بيضاء ٠ وبعد ان هدأوا بعض الوقت ٠ وابتلع صلاح السعال الذي انهدت به حنجرته قال اسماعيل العماري معلقا :

ـ ان رأي موندريان متطرف وهو يسلب من الفن مهماته المتجددة مع الزمن ٠ وانا لا اقره ٠ تأمل ناقدا تقدميا مثـل ارنست فيشر فهو يرى ان الفن لازم للانسان حتى يفهم العالم ويغيره ٠

وقاطعه صلاح بقوله :

ـ يجب أن لا تضيعنا هذه المقولات المتطاحنة ٠ انني مريض بالرسم ٠٠ ولا استطيع أن اتصور الحياة مجردة عـن الفرشاة واللون ٠

وكأن كلمات صلاح هذه خاتمة الحـديث اذ التفت الى هدى عباس متسائلا :

ـ والآن ؟

ـ لنذهب ٠

ـ ودرس الالوان ؟

ـ الى جهنم ٠

ـ أمري لله ٠ هيا ٠

ثم نهضا منصرفين بعد ان همس في اذن اسماعيل :

ـ نحن في مطعم «كازابلانكـــا» ان أردتما المجيء أنت وسامية ٠

فتمتم اسماعيل :

ـ حسنا ٠

★★★

وقال خليل الراضي وهو يتابع قامتيهما المبحرتين بين جموع الطلبة :

ـ علاقة محيرة ، ولا أدري لماذا لا أتفاءل لها ؟

وردت عليه سامية سبعيد بصوت ناعم :

ـ ولكنهما قررا الزواج .

وأطرق اسماعيل ثانية ليتم رسم صورتها وهو يقول :

ـ هل يكفي القرار وحده ؟

- ٣ -

من أوراق صلاح كامل
(تشرين الأول ١٩٧١)

كنت منهمكـــا في تصميم كتاب عن منجـــزات وزارة التخطيط • وهـــذه مهمتي التـــي اؤديها اليوم • اعلانات • خطوط • رسومات • ورغم هذا فانني اجد الوقت الكافي لان أرسم شيئا أريده •

وعندما طرق باب غرفتي قلت دون أن أرفع رأسي :

ـ تفضل •

وبزغ علي سعدون الصفار • واشرقت طلته الصديقة على عالمي المهموم • فانتفضت واقفا وخطوت اليه ، ثم تلقفته في احضاني •

ـ والله مشتاق •

ـ وانا اكثر شوقا يا سعدون •

ثم ألقى بجسده علــــى الكرسي الجلدي على يميني •

فتمليته برهة • وقرأت طقوس التعب والخــذلان في عينيه • فوجدت وجهه قد اسمــر ونحف • وبدت عظام وجنتيه ناتئة • أما جلحته فقد امتدت لتحصد ما تبقى في جبينه من شعر • ولم يفلح في اخفاء الصلع الذي غزاه بتمشيط شعره الى الامام وعقصه الى اليسار كما يفعل ابناء العشرين •

تساءل :

ـ لماذا لا ترد على رسائلي ؟

ـ لا أدري كيف أرد • ولكن اعلم يا سعدون ان هذا شأني مع الذين أحبهم • لم اكتب لك ولا لعبد الحميد الفلوجي ولا لخليل الراضي •

ـ الكلمة التي تأتيني من الوطن كقطرة ماء لفم عطش •

ـ والآن حدثني عن السعودية ؟

ـ عدت منها كما تراني • ولكني ••

ـ ولكنك ماذا ؟ حب آخر ؟

ـ لا • وانما داء آخر •

وهتف موضحا :

ـ البواسير •

وانطلقت ضاحكا بكل ما تمنحني حنجرتي من قهقهة •

ـ من أين جاءتك ؟

ـ من الجلوس الكثير والاكل الدسم •

ثم تناول السيكارة من يدي وهو يقول :

ـ ولكن الاصابة في اولها • وقد اعطاني الطبيب بعض الدهونات والحبوب •

وعادت الضحكة الى حنجرتي من جديد •

ـ افلح المرض معك هذه المرة ؟

ـ ولكنه لعين اذ تركتكل أجزاء جسمي وحط في عجيزتي •

وكان قد رفع مرفقه آنذاك • وحــــرك يــده امام وجهه بدماثة • فتساقط رماد السيكارة على بنطاله • ولم ينتبه اليه • وقلت مشاكسا :

ـ لقد اختار المرض المكان المناسب •

ـ لا تخف • ساشفى عاجلا • لم اقرر الموت بعد • واذا أردت ذلك فلن يكون بالبواسير • سانتحر قبـل ان اسمح لهــا بالقضاء علي •

وعندما انتبه الى رماد السيكارة أخذ ينفضه وهو يتطلع الي ، والى مكتبي العريض ، ورفوف الكتب التي تحتل الجزء الكبير من الجدار المواجه لي • ثم تامـــل بعـض التصميمات الموزعة على الجدران وقال :

ـ كل هذه من عملك ؟

ـ نعم •

ـ يبدو انك لم تضيع وقتك ؟

ثم اضاف :

ـ أما أنا فقد أضعته في تدريس الرسم لأناس يعتقدون أن رسم الاشياء الحية حرام ·

وهز يده بتهكم · وعدت أسأله :

ـ وبعد ؟

ـ وفوق هذا ليس هناك خمرة ولا نساء · ولذلك وفرت اكثر من ألف دينار · الا يبدو علي الترف ؟

ـ يبدو جيدا · ولكن متى جئت ؟

ـ قبل يومين فقط · جئت عن طريق بيروت · مكثت فيها يومين · ولكنني لم اتذكر شيئا منها · لأنني كنت ثملا · وركبت الطائرة ثملا ايضا · وقد ابتلى بي أحد أبناء مدينتي الذي كان مدرسا معي في نفس المدرسة ·

ـ واهاً لك أيها السليط !

ـ رويت شراييني بالكونياك الفـــاخر · كورفوسيه ·· تصور بعد العرق الماستكي الرديء والذي لا أجده الا مرة في الشهر ؟

ثم طرح ظهره على الكرسي وهو يزفر ويردد :

ـ كيف حال الزوجة والطفل ؟

ـ بخير · وسلامهما ·

وأنتم ·

ـ ما أسرع جريان الحديث

وأضاف وهو يعتدل في جلسته :

ـ المهم انك ربحت امرأة من وراء رسوماتك التافهة٠ أما أنا فلم أحظ على شيء لحد الآن على الرغم من انك لا تصل الى ذرة من عبقريتي ٠

ثم انحنى ليطفىء سيكارته في المنفضة الموضوعة امامه وهو يتساءل :

ـ وهدى عباس اين ولت ؟

وانبعجت أعماقي أمام هذا التساؤل ، ولكنني أجبت :

ـ كانت لها علاقة مع حسين عاشور ٠

واستغرب من ردي ٠

ـ أصحيح ما تقول ؟

ـ نعم ٠

ثم أعاد ظهره الى متكأ الكرسي ٠ وهو يتمتم باستنكار :

ـ يا للسخرية !

ـ ولكنه تركها كما اخبرني قبل ايام ٠ قال انه لا يستطيع الاقتران بفتاة كانت لها علاقة مع اقرب صديق له ٠

ـ ومتى تم هذا ؟

ـ بعد خروجه من المستشفى ٠

وزرعته ردودي في حيرة مقفلة ٠ فاستل سيكارة جديدة وبدأ بالتدخين ٠ وبان وكأنه ينأى عن نفسه ٠ وانتبهت الى انني لم اطلب له ما يشربه فضغطت على الجرس وطلبت من الفراش ان يحضر فنجاني قهوة ٠ وعاد يسألني وهو يحتسي قهوته :

ـ والآخرون اين انتهوا ؟

ـ خليل الراضي اطلق سراحه وهو مدرس في البصرة الآن ٠

وتمتم سعدون بحنو :

ـ لم أنس وجوهكم ولا حكاياتكم لحظة واحدة ٠

وتابعت :

ـ ما يعجبني في خليل الراضي تماسكه المستديم ٠ عندما خرج من السجن لم يبد عليه اي تذمر او انفعال ٠ وقال يجب ان نقف بجانب الثورة حتى تمضي الى تحقيق المزيد من الانجازات ٠ وقال ايضا يجب ان لا تسيرنا الاحقاد لأن هذا سيؤدي الى تدمير البلد ٠

ـ واسماعيل العماري ؟

ـ ما زال في العمل الفدائي ٠ وقد التقيت به في بيروت٠ ولكن يبدو انه لن يصل الى جواب اخير عن تأزمه بعد اعتقاله واعترافه ٠

ولم يجد سعدون كلمة مناسبة يتابع فيها شرح حالة اسماعيل ٠ ولكنه اكتفى بالتعليق :

ـ كنت خائفا عليه من تطرفه ٠

ثم غير لهجته وهو يسأل :

ـ وخالدة ؟ وياسمين ؟

ـ خالدة معلمة في كركوك ٠ أما ياسمين فما زالت تحلم ببعثة تحملها الى أوربا ٠

★★★

أنفقت الوقت قبل مجيء سعدون الصفار الـــى بيتي في العمل في حديقة البيت • ثـــم برش الاشجار وتنقيع اوراقها بالماء • وأخذت انسام المساء تحمل معها برودة بليلة تشفي الرأس من صداع الظهيرة ولهيبها • وكانت أشجار الحدائق المجاورة ترمي بأغصانها الوارفة من وراء السياج ، وتمنح شجيرات البرتقال والليمون سقيفة من الظل الوارف • ووسط شجيرات الورد تنتصب نخلـــة فارهـــة ورائعـــة بعذوقها وكبريائها • وقد أوليتها عنايـــة خاصـــة حيث احتطب منها للسعفات اليابسة لتظل خضراء مشرقة دوما •

وعندما حضر سعدون الصفار ، عاد زحف الذكريات مع أقداح العرق ونحن نسكبها في عروقنا • وعندما استأذنت زوجتي بالذهاب الى المطبخ قال :

ـ انها سيدة رائعة • أهنؤك عليها •

ثم أضاف بلهجته الحاسمة القديمة :

ـ وأنا أبحث لي عن زوجة أيضا •

ـ وجارتك الحبيبة ؟

ـ تزوجت من ابن خالتها بعـــد سفري الى السعودية بأيام • هكذا هن • سخيفات ومنقادات • يورطنك في علاقة • وفي اللحظات الحاسمة يتخاذلن •

وقلت له :

ـ نحن حائرون يا صديقي • وحيرتنا اكبر منا في اغلب الاحيان • والمرأة جزء كبير من هذه الحيرة الشاسعة • لا بد من المرأة هذا ما اقره • على الرغم من انني ادرك باننا لا نقدم

على الزواج الا في لحظة ضعف بحثا عن القوة والمستند فيه بعد ان نكتشف كذب العواطف والعلاقات في الاخير ٠

وهز سعدون الصفار راسه موافقا ثم قال :

ـ انا ضعيف الآن ٠ وأريد أن أتزوج ٠

ـ حسنا ٠٠ من الغد سنبحث لك عن واحدة ٠

– ٤ –

حوارات خاصة
(نيسان ١٩٦٨)

ــ خذني الى أي مكان تريد ·

انطلقت هذه الكلمات مـــن بين شفتي هدى عباس وهي تتنفس هواء الشارع العريض بفرح يملأ صوتها بنغمة صافية·

وكان صلاح كامل بجانبها ، هــــو وتساؤلاته الأزلية · يدخن بنهـم وعلى شفتيه ابتسامة ذاوية يقـابل بها سعادتها الغامرة ·

وأردفت تسأل بصوت تسرب اليه التهدج :

ــ لماذا لا ترد ؟

ولكزته برقة على ذراعه فأجاب كالعائد من أرض أخرى:

ــ حددي أنت المكان ·

ــ لا أعرف · أنت خبير بزوايا بغداد ·

ــ حسنا ·

كانا قبل قليل في قاعة مؤسسة السينما والمسرح حيث

شاهدا فيلما عن عطيل ذلك الشرقي العاشق بجنون · وعندما امتلأ رأساهما بفحيحه واكفهرار أنامله المهيـــأة كالمشانق لسحق عنق ديدمونة قررا مغادرة قاعة العرض ·

ــ صلاح ·

ورفع اليها وجهه مجيبا :

ــ نعم ·

ــ أتعرف بأنني قد حذفت من قاموسي كلمة سمعة منذ أن عرفتك ؟

وتساءل بتهكم :

ــ وهل كنت تعرفينها جيدا ؟

وزفرت بانتكاس :

ــ لماذا لا تكف عن اهانتي ؟

وكان هذا التساؤل يضع حكايته معها في شريط طويل · أحداثه ماثلة وساخنة · بدايتها يوم دخولها الكلية· حيث كان صلاح وسعدون يتشاتمان آنذاك عن رأيين مختلفين في معرض فني · وعندما رآها صلاح هتف :

ــ أنسام جديدة تهب على كليتنا ·

وأعلن سعدون الصفار وهو يتأملها :

ــ أعرفها ·

ــ أيها اللعين أنت تعرفهن كلهن · ولكـــن في اللحظات الحاسمة لا تملك غير الاستمناء او مضاجعة البغايا اللواتي يطرقن باب شقتنا في أوقات الظهيرة ·

ـ أقسم لك انني أعرفها • انها من مدينتي • وقد ساهمت معي في عدة معارض مدرسية •

ـ لم أعرف من قبل ان مدينتك تنجب مثل هذا الطراز الناعم •

ـ مدينتي يا سيدي تنجب البرتقال والنساء الجميلات • أفهمت ؟

ثم مد سبابته الى الامام قائلا بلهجة محذرة :

ـ ولكنها شريرة هذه الفتاة •• شريرة بالفطرة •

ـ حسنا • انها تلائم المقام اذن •

وأضاف مؤكدا :

ـ وسأروضها •

ـ لا أظنك • فليس كل النساء يستسلمن لعينيك الخضراوين •

ـ أراهنك ؟

ـ بلا رهان أيها الدون جوان المدعي • ولكنك ستكسب احترامي ان استطعت الوصول اليها •

ـ لست بحاجة الى احترامك •

ـ ان احترمك سعدون الصفار احترمتك الدنيا كلها • أفهمت ؟

ـ أفضل من احترامك لي دعوة في أي بار حقير من بارات بغداد •

وصمت سعدون بعض الوقت وهو يفتل شاربيه • ويتأمل صاحبه بعينيه الساهمتين :

ـ حسنا • قبلت الرهان •

ـ أيها الخاسر سجلها في الحساب اذن •

★★★

والآن ها هي معه • اللعبة تمت • وكلماتها الشاكية تموء في أذنه فيخنقه الملل منها • تمتمت :

ـ أحس بأنني بعيدة عنك رغم كل محاولاتي في اقتحام عالمك !

وتساءل ووجهه مزروع في امتداد الشارع :

ـ ولماذا تحاولين ذلك ؟ ابقي في مكانك أفضل •

وطلي اهابها بمسحة مــن الانكسار • فأطرقت وظلت تراقب وقع خطواتها على الاسفلت •

كان سعدون الصفار يقول عنها :

ـ لن تهدأ ما لم توقع كل ذكور الكلية في شباكها ابتداء بالعميد وانتهاء بجابر الفراش !

ـ ألا تبالغ في هذا ؟

وكان سعدون آنذاك مطأطئا رأسه • ناظــرا للفسحة الممتدة امامه • وقال :

ـ لا تبرير أمامي بمثل هذه الاسئلة • ما زلت أنتظر أن توقع بك ثم ترميك جانبا كما فعلت مع الذين سبقوك •

وسأله :

ـ أتعرفهم ؟

وهب مجيبا ، وهو يقرب ما بين حاجبيه :

ـ كيف لا ؟ انني تاريخها المتجول • أعرف كـل مراحل حياتها منذ أن كانت في المدرسة الابتدائية •

ثم تنهد وأطلق آهة من صدره وهو يعلن بتقزز :

ـ اذا أردت الصدق • أنا أكرهها كدم أسناني لأنها لم تتوان حتى عن الايقاع بمدرس أعمى يدرسهـــا اللغة العربية وأحالته الى سكير مدمن •

★★★

أحاديث كثيرة عنها ماثلة في ذهنه ولا يستطيع الشفـاء منها • قال لها وهو يشير الى بناية عالية تقع عن يمينه :

ـ في هذا المبنى تجتمع حكومة اللصوص لتنسج عارنا •

وتعتم قوله سكونها فتساءلت :

ـ أعدت لاقحام السياسة في أحاديثك ؟

ـ ليست هذه سياسة •

ـ ما هي اذن ؟

والتفت الى قامتها الناعمة التي تحبو جواره • وحاول أن يكون ودودا معها وهو يسر لها :

ـ اسمعي • السياسة طموح شخصي من أجل الوصول والحصول على بعض الامتيازات لدى البعض وهذه الحـــالة داء • ولكنها هموم يومية عند اخرين تفرضها شروط المواطنة وهذا ما انطلق منه •

وتباله صوتها وهي تتساءل :

ـ لم أفهم جيدا ؟

ـ نحن كطلبة مثلا نشكل الطليعة الواعية في نضال هذا البلد ٠ ويجب علينا أن لا نقف مكتوفي الايدي أمام الاحداث بل علينا أن نرفع أصواتنا عاليا حتى لا يمضي الحكام في غيهم ٠ نتظاهر ٠ نستنكر ٠ نصرخ ٠ نضرب عن الدوام وكل هذا سياسة ٠

ـ وأنت ما دورك ؟

ـ ما دوري ؟ انني يا هدى صوت مستنكر بين عشرة ملايين صوت مستنكر اخر ٠ البلد يفور ٠ والحكام ينامون تحت حراسة الدبابات ٠ البلد يمر اليوم بمحنة كبيرة دون أن يستطيع اداء دوره القومي والانساني كاملا ٠ فمن الجبن أن نبقى نراقب الامور عن بعد دون مشاركة ٠ وكأننا سياح يتجولون من اجل اغناء صفحات مذكراتهم بالصور والمشاهدات ٠

ورددت :

ـ انني خائفة ٠

ـ لا تخافي أبدا ٠ هناك أحداث جديدة ستعرفينها خلال أيام والاضراب سيبدأ في كافة الكليات ٠

وكانت كلماته المتحمسة هذه تلم جذاذات أحلامه المتكسرة وتشفيه من جرب الصمت فيرفع رأسه بجذل لم يعرفه الا نادرا ٠ وكانت تصغي الى نبرات صوته الواضحة بانتباه ٠ ودققت النظر في ملامحه متسائلة في سرها عن مصيرها معه٠ وهو يدفعها حثيثا نحو الجدية التي لم تؤمن بها يوما فجاءت حياتها سلسلة من الضحك على الذقون ٠ وفي عملها هذا تحاول

تقديم البديل عن غربتها داخل بيتها ٠ الام السليطة التي تريد اخضاع كل شيء لسلطتها ٠ والاب الذي فقد انتماءه لهـــذا العالم وبقي ملقى في البيت كحاجة زائدة وينشد الجميع موته٠ والاخ الذي يحيط نفسه بغموض مصطنع بحثا عن هيمنة واهية٠

وضعت راحتيها على اذنيها ٠ وضغطتهما بقــوة حتى كاد الدم أن يتدفق من عينيها ٠ وأخذت شرايين صدغها بالنبض السريع ٠ رفعت يديها بعد ذلك لتصغي اليه بلهفة اكبر محاولة أن تنفذ اليه ٠ عل حياتها تنتظم بلحنه وتواجه العـــالم الذي يدينها بحماس جديد ٠

قال لها :

ـ لي طريقتي في النضال ومقاومة النظام ٠ اتدرين ان الظروف السياسية الحادة التي مرت بالوطن جعلت من الاخوة ورفاق النضال أعداء يتطاحنون فيما بينهم بمعارك جــانبية ؟ واليوم أدرك الكثيرون التضليل الذي مورس ضدهم ، وكانت نتيجته هذا الوضع المبتور ٠

ـ تعني ان وجود أمثالك ضروري ؟

ـ جدا ٠

ـ وخليل واسماعيل ؟

ـ لهما وسيلتهما المختلفة ٠

وتساءلت مداعبة :

ـ حماسك غريب اليوم ؟

ـ لان السكين في الجرح ٠

وكانا قد انعطفا آنذاك باتجاه جسر « الجمهورية » ، وقد قطعت خطواتهما مسافة كبيرة منه ٠

وسألته بلهجة اخرى :

ـ أما تعبت من المشي والكلام ؟

اجابها :

ـ تعبت فعلا ٠

ـ ما رأيك في المضي الى شاطىء النهر قـــرب القسم الداخلي ، ومراقبة الغروب ؟

ـ أمرك ٠

وأوقف سيارة تاكسي ودلفا في داخلها مسرعين ٠ وأمر السائق :

ـ الى الاعظمية ٠

وسلكت السيارة طريق شارع الكفاح ٠ وكان صلاح اثناء سيرها غائبا في وجومه الذي أعقب حماسه ٠

وانتبه بعد مرور وقت طويل الى وجود هـدى بجانبه ٠ أمسكت بيده وسألته وكأنها تتشبث به :

ـ هل تنوي خداعي ؟ أم انك تريدني حقا ؟

وقابلها وجومه ٠

ـ سأتكلم متى كففت عن هذه الاسئلة ٠

وتمتمت بانخذال وهي تنكس رأسها :

ـ على اية حال أنا أحبك حتى لو كنت تخدعني ٠

وأطرق دون أن يعلق بشيء على كلماتهـــا ٠ وعندما وصلت السيارة الى جسر الصرافية أمر سائقهـــا بالتوقف

ونزلا منها ٠

قالت وهي تنظر في ساعتها :

ـ ما زال أمامي بعض الوقت حتى يحل موعد اغـــلاق القسم الداخلي وأفضل أن نتمشى على الشاطىء ٠

واستجاب لطلبها وهو يتمتم :

ـ انني ملكك اليوم ٠

وضحكت وهي تعلق :

ـ أريدك ملكي دائما ٠ أفهمت :

وأخذا يخطوان باتجاه النهر ٠ ومرت فترة طويلة كـان جسداهما خلالها يخترقان الشارع الاخرس بهدوء ٠

قالت بانشراح :

ـ انا أعبد النهر ٠ انه صديقى القديم ٠ أعبده فى الليل بصورة خاصة عندما تتلألأ النجوم وانوار المصابيح علـــى صفحته فأتلو أمامه صلاتي ٠

والتقط يدها الصغيرة فلبطت في يده قبل ان تستقر آمنة٠ وبعد لحظات حملت يده ثم وضعتها على قلبها وضغطتها وهي تهمس :

ـ أحبك ٠٠ أحبك يا صلاح ٠

وعندما وصلا الى نخلة وحيدة علـــى الشاطىء أسندت ظهرها الى جذعها وهي تواصل البوح الهامس :

ـ كم اعشق هـــذا المكان ٠ لقـــد رسمت له عشرات

التخطيطات • ساريك اياها غدا •

وأردفت رهي تبتسم من قلبها وتستنشق الهواء بعمق :

– ولكن روعة هذا الشاطيء تحتاج لشاعر لا لرسام • ولو كنت شاعرة لكتبت قصيدة توضع مع معلقات العرب •

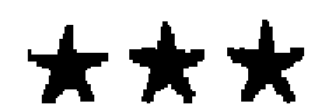
ثم انفجرت ضاحكة • ووجد صلاح نفسه يضحك معهـا وهو يتأمل حادور الماء الذي يحجب امامه • وأصاخ السمع الى أحاديث الصيادين التي تنزلق على سطح الماء من الجهة الاخرى • وأحس ان هذا الهدوء كالترياق لقلبه المصطلى بألف عذاب •

– كيف اكون مثلك يا صلاح ؟

وكان في صوتها توسل التريكة المستنجدة • فقال :

– اريدك أن تحتفظي بكيانك الخاص فأنا اكره الببغاوات رغم كونها طيورا جميلة •

ثم خطا صوبها ووقف بمجاذاتها وأسند ظهره الى جذع النخلة أيضا • وعندما تلامس كتفاهما ادار وجهه اليها فأحست بأنفاسه تلسع أذنها • اعطته وجهها • ثم غابت الاشياء مـن حولهما وتوحدت في نغمة شيقة • ولم تبق غير رغبتهما العارمة في أن يتلاصق جسداهما الضالان ويحتميا ببعضهما • فاقتربت الشفاه لتطفيء اللوعة •



وفي طريق عودتهما أسرت له :

– أتدري ماذا تقول عنك ياسمين فوزي ؟

ورفع رأسه مستفهما :

ـ ماذا تقول ؟

ـ تقول ان صلاح كامل لا يحب أحدا · مجرد أناني ليس الا ··

وابتسم وهو يسألها :

ـ وبماذا أجبتها ؟

ـ ومع هذا فأنا أحبه يا عزيزتي ياسمين ·

- ٥ -

من اوراق صلاح كامل
(تشرين الاول ١٩٧١)

زحف سامر على الممر الاسفلتي الذي يسيـــر بمحاذاة الجدران الخلفية من المنزل · ثم عرج باتجاه الفسحة الجانبية المزروعة بشجيرات الرقي · وجاءني صوت سميرة :

ـ صلاح · ألا تنتبه لابنك قليلا ؟

وتركت ملحمة جلجامش التي كنت موغلا في عالمهـــا · وأسرعت مستجيبا لنداء زوجتي ·

ووجدته جالسا بين الشجيرات · يقطع اوراقها بفرح · ويدندن بمخارج الحروف التي بدأت تستقر على لسانه دون أن يطيق اتمام نطقها ·

ـ أيها الشقي ماذا تفعل ؟

وحملته بين ذراعي · وأخذ يتحرك متملصا لاعيـده الى ساحة لهوه · وعندما عجز عن ذلك أمسك بي من شعري الكث وأخذ يجره بقوة وهو يبكي ·

وقبلت حللته البيضاء ، وشعره المنسدل علـــى جبينه · وابتسمت له وانا أتمتم :

ـ أتضرب أباك ؟

ورأيت في وجهه الصغير وجهي الذي تحمله احـــدى

صوري القديمة • كان كل ملمح منه يمت الي• الجبين وخضرة العينين واستطالة الوجه • ولم ياخذ من امه غير بشرتهـــــا البيضاء ودقة الحنك •

ولم تفلح مداعباتي في ارضائه • كان يريد العودة الى شجيرات الرقي • وعندما وضعته على التيل اخذ يزحف ثانية باتجاهها • حملته من جديد ودلفت به الى المطبـــخ • وقلت لسميرة :

ـ لاعبيه الان • واتركي الطبخ • لست جائعا •

ورددت بحنق وهي تضع القدر فوق آلة الطبخ الغازية :

ـ الا تريح نفسك من القراءة قليلا ؟

ـ يجب ان انتهي من ملحمة جلجامش • ليس لدي الوقت للتاجيل وموسم المعارض في اوجه •

ولم تعلق بكلمة اخرى على قولي بل مدت يديها • فالقى سامر بنفسه على صدرها •

وسلكت الممر المؤدي الى السلم • وتسلقت درجـــاته مسرعا باتجاه مرسمي •

كانت الغرفة مسدلة الستائر • والحرارة تئيد في جوها الساخن • وتشحنه برائحة تبعث علـــى الدوار • فاسرعت مزيحا الستائر وفاتحا النوافذ • ومن ثم ادرت زر المروحـــة السقفية لتطرد السخونة والدبق • وتمنحني الجو الذياستطيع أن أرسم فيه بانشراح •

واخذت استعرض الصور التي انجزتهـــا عن الملحمة •

وكنت قد رصفتها على الحائط • وتاملتها بتفحص دقيق• وكأنها ليست لي • وانتشيت وانا أراقبها من وراء دخـــان سيكارتي وكانني انفذ الى أعماقها واوغل فيها بعيدا • وامتلأت بالرضى• لقد رسمت بدمي وعيني • رسمت بقلبي ومشاعري وفكري لا بيدي فقط كما يفعل الكثير من المعاصرين لي • واقتحم ذاكرتي ذلك المقطع المتفائل من قصيدة لبريخت الذي حفظته أخيرا :

« اذا كنت على قيد الحياة فلا تقل ابدا ،
ان ما هو أكيد ليس أكيدا
فلن تبقى الاشياء على ما هي عليه
وما كان مستحيلا يصبح واقعا
قبل أن تغرب شمس اليوم »

وشحنتني هذه الكلمات بالفرح الحقيقي الذي عرفته مرة قبل هذا عندما صافحت عينا سامر النور •

ما دمت أرسم بهذا العنفوان • وهذا العشق فانني ادلل على حضوري الحار في زمن الثرثرة والاحتراق •

واستخرجت بعض التخطيطات المهياة للتنفيذ • اخترت واحدا منها وبدأت أرسم •

خلطت ألوانا كثيرة ، ووضعتها على القماش • ثم جرفتها بالسكين لأضع بديـــلا عنها الوان اخرى • وجـــربت بعض التشكيلات • شطبت • وانجزت • حتى دب الشوق للكاس في أعصابي •

وعندما لحقت بي سميرة طلبت منها أن تهيء لي قدحا من البيرة الباردة ، وعندما احضرته همست وهي تنظر الى يدي

التي تودع الفرشاة في وعاء النفط :

ـ اتصلت بي أم زياد · غدا عيد ميلاد ابنها ·

ـ اتريدينني أن أذهب معك ؟

وكانت قد اتكأت على الباب وكأنها تنوي الخروج فاجابت بحماسة :

ـ طبعا ·

ألا تستطيعين تدبير عذر لي ؟

وتسرب العبوس الى وجهها وهي تتساءل :

ـ كيف ؟

ثم رفعت كتفها المستند الى الباب ووقفت ناصبة طولها الفارع أمامي ·

ـ قولي ان لديه عملا رسميا · أي عذر ·

وقابلتني مسحة الاصرار على وجهها وهي تتساءل بفراغ صبر :

ـ كيف أذهب وحدي ، وكل المدعوات يحضرن مع أزواجهن ؟

وأجبت بحرارة محاولا مداراة غضبها :

ـ حسنا · حسنا · سأذهب معك ·

ثم رفعت القدح بعد ان مسحت يدى من الدهان والالوان وأنا أقول لها :

ـ في صحتك ·

فاقتربت مني ثم طرحت ذراعيها العاريين على كتفي

وقبلتني وهي تسألني :

ـ متى تريد عشاءك ؟

ـ بعد ساعة ·

وأزاحت ذراعيها وهي تقول بصوت اجتاحته موجة حماس وفرح :

ـ سأستغل نوم سامر لأغسل ثيابه ·

وانسحبت من أمامي نازلة الى الدور السفلي · بينما عدت للرسم من جديد · وخطر ببالي ما قلته لعبد الحميد الفلوجي عن الزواج في احدى رسائلي له : « مرات أحس وكأنني موثق العنق ، وأقاد من حفلة ميلاد الى تهنئة بزواج الى رد زيارة · دوار فظيع » ·

وأحسست بالملل فجأة من مواصلة العمل في هذا الجو الخانق الذي لم تفلح المروحة السقفية في ازاحة الحرارة الجاثمة عليه ·

وضعت الفرشاة في وعاء النفط · واطفأت الانوار · ونزلت باتجاه الحديقة · وعدت الى ملحمة جلجامش التي تركتها على الكرسي · وبدأت أقرأ فيها متهيئا للرسومات الجديدة · وللمرة التي قد تكون المائة أعدت قراءة وصف جلجامش :

« جعل الآلهة العظام صورة جلجامش كاملة تامة ·

كان طوله أحد عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار ·

ثلثان منه اله · وثلثه الآخر بشر ·

وهيئة جسمه لا نظير لها ·

وفتك سلاحه لا يصده شيء ،

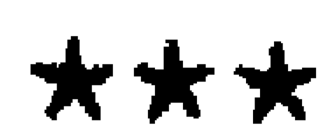
. . . .

هو راعينا القوي كامل الجمال والحكمة » ·

وتذكرت وصف شاعر آخر له : « شاب أهوج · عملاق· ملك · يجتاحه غرور وطغيان · وشراسة جنسية · تتنـــاسب كلها مع العملقة والشباب والملك » ·

لقد عرفته جيدا · وأكـــاد أراه أمـــامي واقفا بهيئته الخارقة · ومن هنا ينبع فرحي · لا أريد أن ارسم قشرته كمــا كنا نفعل في مواضيع الانشاء التصويري في الكلية · تـــلك المواضيع المسطحة التي لا تعطي الذهن الفرصة في أن يتوقد· تعبت ·· تعبت ··

واطلقت صوتي في هدوء الليل طالبـــا من سميـرة أن تحضر لي عشائي ·



- ٦ -

ليلة ثقيلة

(مايس ١٩٦٨)

استيقظ صلاح متأخرا بعـــد أن لسعت شمس الصباح جسده الممدد في فراشه الصيفي فوق سطـــح الـدار ٠ وبقي جالسا على حافة السرير بعض الوقت وهو يفرك عينيه متثائبا بين فترة وأخرى ٠

ثم نهض بصعوبة وأخذ يخطو نازلا درجات السلم باتجاه الحمام ٠

كان رفاقه الثلاثة سعدون وخليـــل وحسين عاشور قد غادروا الشقة الى الكلية ولم يبق أحد غيره ٠

تقع الشقة في منطقة الوزيرية وفي الشارع الذي يمتـد باتجاه شارع المغرب ٠ وأغلبية دور هذه المنطقـة مسكونة من قبل الطلبة الذين قصدوا كليات بغـــداد من المدن المجاورة ٠ وتتألف من ثلاث غرف واحدة في الطابـق الاسفل واثنتان في الطابق الاعلى ٠

وكان خليل يحتل غرفة بمفرده في الطابق الأعلى • وهي اكثر الغرف الثلاث أناقة • فيها أربعة مقاعد خضراء • وفراش نظيف يستقر على سرير عريض مغطى ببطـــانية صوفية ذات لون رصاصي باهت وتزينها زهور صفراء وحمراء كبيرة ، وفي أحد اركانها خزانة صغيرة يستعملها لحفظ أوراقه الخاصة • وفوق سطحها اطارات بمسندين ، يؤطر الأول صورة لخليل مع اخيه ، تظهره وهو يضع ذراعه على كتفه بمودة ، بينما يحمل وجهاهما نفس البسمة التي تجعل من يرى الصورة يعرف لأول وهلة انهما شقيقان • ويؤطر الثاني صورة تجمع أقطاب الشقة الاربعة وهم في نادي الكلية • وتبدو الصورة وكأنها التقطت لهم على غير علم منهم اذ لم يعيروا الكـــاميرا أي اهتمـــام • فصلاح يأكل سندويجا بطريقة شرهـــــة • أما سعدون فيبـــدو وكأنه يتوسل به من أجل ان يمنحـــــه لقمة ، أما خليل فيقــرأ صحيفة ، وحسين واقف ينظر باتجاهه •

وعلى الجدران هناك لوحتان فقط ، وهما من أجــود مـــا رسم خليل في موضوع الانشاء التصويري • الأولى تمثل لقطة من سوق شعبي في محلة الكسرة • والثانية تمثل نهاية زقاق بغدادي قديم في منطقة الفضل • واللوحتـــان مرسومتـــان بالاسلوب الاكاديمي المدرسي مراعيا فيهما رسامهما استعمال خمسة الوان فقط وفق مشيئة المدرس •

والغرفة الثانية في الطـــابق الاعلى يسكنهـــا حسين وسعدون معا • وتبدو عارية تماما من الأثاث • وليس فيهـــا غير حقيبتين تعودان لحسين وثالثة من الصفيح تعود لسعدون • وكانت الحقائب هذه تترك مفتوحة دوما ، والملابس مبعثـــرة

منها · وعلى الجدار المقابل للباب علقا جزءا كبيرا من ملابسهما بغير ترتيب · حتى الستارة التي تتدلى من الشباك الوحيد قد افلت قسم من الماسكات التي تقبض عليها · وسقط جزء كبير منها على الارض ، وترك الشباك عاريا وهو يطل على السطح الخالي ·

أما صلاح فقد احتل الغرفة الواقعة في الطابق الاسفل· وفيها منضدة كتابة وسرير حديدي في منتصف عمره · ولم يعلق على الجدران غير لوحة واحدة تمثل امرأة عارية منقولة من احدى لوحات « روبنز » وكانت تغطي مساحة كبيرة من الجدار الذي يقع خلف السرير بحيث يبدو وضع أية لوحة اخرى جوارها زائدا · كما علق مرآة كبيرة على يمين الباب ، ذات رف زجاجي صغير ، صفت عليها ادوات الحلاقة وزجاجة كولونيا · وفي الغرفة ايضا خزانة ملابس اشتراها من سوق الهرج بسبعة دنانير · وقد زاد في اناقة الغرفة ذلك البساط ذو اللون البني الغامق المفروش في وسطها · وقد كدست الاوراق والكتب على منضدة الكتابة · أما اللوحات وأوراق الرسم فقد خزنت في المطبخ الذي لا يستعملونه الا لماما ·

وتتقدم الشقة حديقة صغيرة ، تستحوذ على سمائها أغصان شجرة سدر معمرة · يبدو انها غرست في المكان قبل أن تشاد عليه هذه الشقة · وقد اقتطع جزء من الحديقة وبني فيه دكان ، يستعمل مكتبا لاحدى شركات سيارات الاجرة·

وتذكر صلاح وقائع الحكاية التي حدثت لسعدون في الليلة المنصرمة ، وتمتم بسخط وهو يدلف الى الحمام :

ـ ويلك يا سعدون الداعر • لاتأتينا الا بالفضائح •

وأخذ ينضو عنه ملابسه • ثم فتح رشاش الماء ليستقبل جسده برودته المنسكبة على يافوخه المؤترق فيعيد اليه صحوه تدريجيا •

★★★

خلا الجو لسعدون الصفار في الشقة عصر آمس• حيث غادرها رفاقه لحضور عرض مسرحي في قاعة الكلية • ولم يستطع المكوث في الشقة بانتظار واحدة تضغط على زر الجرس • فخرج ببيجامته وأخذ يدور في الشوارع الخلفية وأمام الشقق التي يسكنها الطلبة العزاب • وتمكن من استدراج واحدة قادها الى مكانه • وكان بين سعدون وصاحب مكتب السيارات اكثر من مخاصمة اذ كان سعدون يريد مشاركته في اللواتي يأتين الى مكتبه كلما خلا له الجو • وقد تشاجر معه قبل أيام آخر شجار عندما رفض أن يجعله شريكه في صبية سمراء وديعة كطالبات المدارس • وعندما رأى صاحب المكتب سعدون ومعه صيده أسرع مخبرا الشرطة بالامر •

وقبل أن ينتهي سعدون منها سمع طرقا قويا على الباب• وعندما فتحه فاجأه عريف أتيس مع شرطيين بملابس مدنية حيث قادوا سعدون مع العاهرة الى مركز الشرطة القريب • وكان أول الحاضرين الى الشقة صلاح كامل الذي ضجر من متابعة المسرحية فخرج قبل أن يتمها • وفي الباب أخبره صاحب المكتب بالأمر قائلا :

ـ الشرطة تراقب شقتكم منذ مدة • وعندما أحضر

سعدون واحدة أمسكوا به متلبسا بالجـــــرم وقادوهما الى التوقيف ·

وكان صاحب المكتب يفخم مخارج الكلمات في فمه وهو يتحدث بنبرة حاول أن يملأها بمشاعر الأسف لما حدث ·

ثم انصرف بعد أن اطلق كلماته متهاديا في مشيته، وهو يحسن من وضع طاقيته بين حين واخر · وبدأ يمسح بقطعـة قماش كانت في يده الزجاجة الامامية لأحدى سياراته ·

وخطر لصلاح أن يتلفن لعبد الحميد الفلوجي في الاذاعة عله يعرف أحدا بين رجال الشرطة ليكم فم هذه الفضيحة التي قد تسبب طرد سعدون من الكلية · وعندما تلفن له لم يجـده · واتصل بنادي المحامين مقره الليلي فلم يجده ايضا · ثم عـاد الى الكلية وانتظر خروج خليل وحسين مـن العرض المسرحي ليذهبا معه الى مركز الشرطة ·

قال خليل الراضي :

ــ متى تنتهي فضائح هذا الداعر ؟

وغمغم حسين :

ــ انها فضائح مشتركة · اليس كذلك ؟

وعلق صلاح :

ــ نعم · ولكنه يزيدها عن حدها ·

ثم عاود الكلام بلهجة مسرعة جعلت صوته يشبهالتأتأة:

ــ لنذهب الى مركز الشرطة علنا نجد حلا ·

وعندما وصلوا هناك وجدوا سعدون الصفار جـالسا

ببيجامته على صفيحة فارغة وقربه أحد الحراس · وعنـدما رآهم هب واقفا :

ـ لا أريد أي عتاب · لقد فعلتها والسلام ·

ثم عجنت صوته شائبة من الانخذال وهو يتابع :

ـ هيا وقعوا الكفالة حتى يطلق سراحي· العاهرة لقيت قبلي كفيلا ، أما أنا فانتظركم أيها الاوباش ·

وردد خليل الراضي :

ـ سأوقع الكفالة ·

ثم استدرك مشاكسا :

ـ ولكن من يضمن انك لن تعاود الكرة ؟

ـ أقسم لكم بكل الانبياء انني لن أعاودها ·

ودلف خليل الى غرفة مأمور المركز · ووقع الكفالة · وأطلق سراح سعدون الصفار ·

قال حسين عاشور :

ـ كان من الواجب ان نتركك تنام هذه الليلة في المعتقل ·

وعقب صلاح :

ـ علينا أن نكتم الخبر ·

وأطلق حسين صوته من جديد ليردد بلهجته الساخرة :

ـ هل كانت عروستك تستحق هذه المجازفة :

فهب سعدون قائلا :

ـ ولماذا لا ؟ على أي شيء أجازف اذا لم أفعل ذلك مـن أجل انثى ؟

وقال خليل :

ـ ولكن امرأة هذا نوعها لا تستحق كل هذه المتاعب·

ودافع سعدون :

ـ تستحق أو لا تستحق ، المهم انني كنت بحاجة اليهـا وكفى ·

ـ والمهم ان وجودنا في هذه الشقة أصبح محرجا· فاما ان يعاهدنا سعدون بأن لا يعاود الكرة وأما ان نجد لنا مكـانا آخر ·

بهذا الشرط نطق صلاح فتمتم سعدون :

ـ السنة الدراسية على وشك الانتهـاء · ولا أظن اننـا سنجد مكانا غير الفنادق · فالحصول على شقة متعذر جدا · وانا على استعداد لأن أوقع لكم تعهدا خطيـــا بأنني ساقطـع عضوي اذا عرضتكم لمثل هذا الموقف ·

وتابع بنبرة غيظ :

ـ لولا صاحب السيارات لما عـــرف احد بالأمر · هو الذي أخبر عني حتما · يطلبني بثـــأر ابن العاهرة · ولكنني سأعلمه ·

وقال خليل الراضي :

ـ الوقت متأخر ، ولا داعي للبحث عن الاسباب ·

★★★

وخرج صلاح من الحمام وهـــو يحس انه قد أصبح في وضع أفضل يؤهله للذهاب الى الكلية ودخول المحاضرات ·

وأسرع في ارتداء ملابسه مقررا أن لا يكرر اللوم على سعدون • ثم أطلق شتيمة ساخطة ، وانفجر بعدها بالضحك العميق •

★★★

استقر خليل الراضي جوار صـــلاح عندما رآه يدخل الكلية ويأخذ له مكانا قصيا في حديقتها • وكان صوت المطارق وهي تدق اللافتات يعلو ممتزجا بضوضاء الطلبة وأحـاديثهم الصباحية الصاخبة •

قال خليل الراضي :

ـ كلية التربية محاطة بالدبابات ومهددة بالقصف اذا لم ينته اضرابها •

ورد صلاح بقرف :

ـ سلطة غبية • تقصر من أجلها • ستضرب كل الكليات، وربما المعامل أيضا •

وكانت عيناه لا تظهران هذه التعابير الجهمة • وتحتفظان بخضرتهما البراقة دوما • فتبدوان وكأنهما حقلان صغيـران يسبحان بشمس الربيع •

وأخذ خليل الراضي يهر كقط غاضب وهو يعلن :

ـ انها ورقتها الاخيرة فلتلعبها • لقد عزلها الشعب تماما بعد أن تاجرت بأسمه زمنا •

ثم انسحب صلاح بعد ذلك • ودار في فناء الكلية بحثـا عن سعدون الصفار ، وعندما وجده في معتكفه المنزوي جـلس بجانبه دون أن يحييه •

ولاذ سعدون في صمت لائب حاول فيه أن يخفي انفعاله. ولم يستطع البقاء طويلا في مثل هذا الوضع ، فانطلق صوته متسائلا :

ـ اذا كنت ثقيلا لهذا الحد ، فلماذا تجلس بجانبي :

وعندما قابله وجومه كرر :

ـ لماذا لا تتكلم ؟

وتمتم صلاح :

ـ اسكت أيها البليد .

وهب سعدون واقفا :

ـ أتريدون أن تنصبوا من انفسكم أنبياء ؟ سأمسح بكم الارض ورب الكعبة اذا عاملتموني هذه المعاملة .

وأمسك به صلاح من ذراعه وهو يقول بنفس لهجته اللامبالية :

ـ اسكت ، واحتفظ بثورتك السخيفة هذه . من قال اننا نريد أن ننصب من أنفسنا أنبياء ؟

وأردف :

ـ هيا اجلس ، وانس ما حدث فكلنا معرضون له ما دمنا نفور بالشباب والرغبة .

وجلس سعدون وهو يزفر بانشراح ويقول :

ـ هذا كلام معقول .

ـ هل رأيت هدى ؟

ـ أظنها في النادي .

ثم هتف صلاح وكأنه تذكر شيئا :

ـ انسيت انك مدين لي بدعوة ؟

ورفع حاجبيه الى أعلى متسائلا :

ـ أية دعوة ؟

ـ رهاننا عن هدى ٠

وهز رأسه بالايجاب وقال :

ـ تذكرت ٠ وسأقيمها لك ٠ ولكن بشرط واحد ٠

ـ ما هو ؟

ـ ان تقرضني دينارين ثمن الدعوة ٠

ـ ومتى ترد الدين ؟

ـ رأس الشهر ٠

ـ اتفقنا ٠

وقدم له سيكارة ٠ تناولها منه صلاح وهو يسأله :

ـ لماذا لم تشارك في تعليق اللافتات ؟

ـ لقد خططتها جميعها وحدي أليس هذا كافيا ؟

وعلق صلاح مازحا :

ـ أنت مناضل جسور !

ـ لقد وعدني اسماعيل العماري بغداء دسم في بيته ثمنا لخط اللافتات ، أما النضال فقد تركته لكم ، لـــي مياديني التي استطيع ان ابرع فيها يوما ٠

وقال صلاح وهو يغمزه بطرف عينه :

ـ لقد برعت فعلا ، كما فعلت البارحة ٠

ـ أعدت الى هذا الحديث ؟

ثم افتر ثغره عن ابتسامة ودودة وهو يقول مضيفا :

ـ خليل الراضي يقول السياسة والسياسة فقط ، اما انا فأقول المرأة والمرأة فقط ٠

وعاد ليضيف بتأفف :

ـ ولكنها سر بلائي ٠ وبلاء كـــل العصور ٠ الحيوان الناعم الاليف ٠

وضحك بأعلى صوته بعدما انتهى مـــن كلامه ٠ والتقط حجرة من الارض ، وطوح بها على امتداد الفسحة المنطرحة امامه ٠ ثم اتكأ على كرسيه بعد ذلك كعجوز قديم يسند حنكه الى عصاه المغروسة في الارض امامه محاولا التقاط كلمة من افواه المتحدثين عل فيها ما يعيد لرأسه المتعب ذكريات السنين الغابرة ٠

وقال :

ـ قررت ان لا اغادر هذه الكلية بعد ٠ فتياتها قليلات ٠ وقد احببتهن بالتسلسل واسترحت ٠ قبـــل يومين ذهبت مع حسين الى كلية الاقتصاد في جولة غـــرامية فصعقت من الميني جوب وعدت أدراجي الى كليتنا هاربا ٠

ثم اضاف بعد ان بلع ريقه :

ـ كل كليات الفنون في العالم تقـــدم لطلبتها موديلات عارية ٠ اما هنا فلا نرسم غير وجوه العجائز ٠٠ تف ٠

- ٧ -

اختلاطات

(مايس ١٩٦٨)

منذ ايام وصلاح يبحث عن معاني أخرى واء هذه البسمة المتالقة التي يتحصن بها وجه ياسمين فوزي ، وتضعه في حالة لا يمكن سبرها · وكان موقنا ان له اثرا ما في همومها · ومع هذا لا يجد في نفسه الرغبة لأن يستمر مـــــا دام الملل سيأتيه وينقض على كل مشاريعه في منتصف الدرب ·

وعندما مرقت خالدة عمر من أمامه ، ناداها وحدثها بما قالته ياسمين فوزي عنه أمام هدى · وقال :

ـ انها تسميني انانيا لا احب الا نفسي · وانني اتساءل كيف تسمح لنفسها بمثل هذا الاتهام ؟

وبزغت البسمة من بين شفتي خالدة المزمومتين غالبا · ومنحت وجهها المائل الى العبوس هذا المظهر المستبشر الذي نادرا ما يكون عليه ، وهي تسأله :

ـ أتتكلم بجد ؟

وحملق اليها بحنق ظاهر ، جعل الانشراح ينحسر عن وجهها وهو يقول :

ـ وهل في الامر مزحة ؟

وأدهشتها ثورته فقالت بوداعة وحرص :

ـ لماذا تتوقف عند هـــذه الترهات واليوم همومنا اكبر منهـــا ؟

وأحس بامتلاكها لزمام الموقف فقال مخففا من لهجته :

ـ صحيح · ولكن لا داعي لهذه التهم الرعناء ·

وهنا قالت بحسم :

ـ سأتدبر الامر ، أتركه لي ·

ثم انصرفت عنه · وتركته طـــارحا كتفــــه على جذع الشجرة ، مراقبا الطلبة بدقة ، وهم يتوزعون في الساحة ، وكأنه يبحث عن شيء مخفي بينهم ، ولم يعرف من منهم أخفاه ·

ورفس جذع الشجرة بقدمه حنقا · ثم ضربه بباطن كفه فأوجعت خشونة لحائه راحة يده الناعمة · فلف يده باستجابة غريزية ، وأخذ ينفخ فيها بقوة ·

وانقلب بعد ذلك دائرا في الساحة ، ثم اتجه صوب لوحة الاعلانات وقرأ ما علق عليها · أسماء الطلبة الذيــــن وردتهم رسائل · انذارات بالفصل لبعض الذين كثرت غياباتهم · نداء من وزارة الصحة للتبرع بالدم · أضابه الاعياء مـــن ملاحقة الاعلانات · انفتل عائدا الى الحديقة ؛ ولمح خالدة وياسمين تتحدثان · خمن انه موضوع حديثهما ، قصد كرسيا فارغا في زاوية الحديقة ، وألقى بجسده عليه متذكرا آخر حديث له مع

ياسمين حيث قالت :

ـ لا أدري كيف استطاع كازانتزاكي ان يخلق شخصية زوربا ؟ وكم أعشق أن أكونها ! أن أحب الحياة هـــذا الحب اللاهب مثل زوربا ٠

فعلق على كلامها :

ـ زوربا في رأيي نموذج حسي من البشر ، يعيش حياته وفق ما تمليه عليه رغائبه ونزواته دون ان يكبحها ٠ وأمثال هذه الشخصية لا يعـــدون ٠ شخصية الاب كرامازوف عند ديستوفيسكي مثلا ، أتتذكرينها ؟

وهزت رأسها بالايجاب ثم أوضحت :

ـ أتذكرها شخصية ذلك العجوز اللعين ٠ ولكن لـدى زوربا شيئا من الحكمة ٠ أما لمست هذا ؟ حتـــى ان الشاب المثقف وجد كل قراءاته مشلولة أمام حكمة الدهر في فم زوربا، أما الاب كرامازوف فكان بهيمة داعرة ليس الا ٠

وكان صلاح يواصل النظر الى وجهها الابيض بشغف آنذاك ، وقد توسط شعرها مفرق قسمه الى نصفين ٠ كل نصف أحالته الى ضفيرة ، رمتهما على صدرها كسيفين يذودان عن حماه العالي ٠ وعندما التقت نظراته الشبقة بنظراتها خفضت رأسها ، وأنشأت تحدق الى الارض ، وكأنها تبحث عن شيء أضاعته بين الدغل ٠ وانتبه الى انسراحه مـع عالم الرغبة فقـــال :

ـ أنت محقة ٠ وأظـــن ان السبب عائـــد الى تماسك

شخصية كازانتزاكي ورصانتها المعاكسة تماماً لشخصية ديستويفسكي العصابية ٠

ثم رددت وهي تمرر أصابعها على ضفيرتيها وكأنها تستنجد بهما :

ـ نجيب محفوظ قدم شخصية مشابهة هي شخصية احمد عبد الجواد في الثلاثية ٠

ـ انها ليست مشابهة بالمعنى الدقيق ٠ فهي شخصية مزدوجة تمثل علاقة جيل الآباء مع أسرهم وتعاملهم القاسي معها ٠ ولكنهم في الخارج يكونون شيئاً آخر ٠

ـ هذا صحيح ٠

وقال موضحا أكثر :

ـ ليس هذا عيبا في رأيي ، فالنماذج البشرية واحدة لا تتبدل ، والمشاعر واحدة أيضا ، ولكن المهم التناول ، فهمجية الاب كرامازوف ان قورنت بزوربا تظهر واضحة تماما ٠ والسبب ان هناك فرقا زمنيا بين كتابة الروايتين ٠ ان هناك عمرا حضاريا ٠ ولو عاش الاب كرامازوف حتى عاصر زوربا لربما كانت له حكمته ، ولهذبت همجيته ، وبدائيته ، أليس كذلك ؟

وهزت رأسها موافقة ٠ ثم قالت :

ـ المهم ان يعيش الانسان بكل جوارحه ، ان يخترق وينفذ في الصميم ٠

ـ ولكن المسألة بالنسبة لك كامرأة تبقى ناقصة !

ـ كيف ؟

ـ كأن تنامين مع رجل مثلا !

ورفعت عينيها لتقبلا خضرة الصباح في عينيه المصرتين فانزلقتا الى انفه الذي انفتح منخراه عن شبق عريق ، ومن ثم الى صدره الذي فتح ازراره العليا وبانت كثافة الشعر منه ، وتمتمت :

ـ أنت محق ٠

ـ ثم ابتلعت ريقها وسألته بمرح :

ـ ولكن من أخبرك انني لا أفعل ذلك ؟

★★★ ٠

واعتدل في جلسته ضاربا بكامل يده على ساقه الممدودة أمامه . ثم أخذ يدخن ٠

مساء أمس خرج من شقته بمعية حسين عاشور ، ودارا في الشوارع المحيطة بشقتهما ، مستعرضين أوبة الطالبات الى الاقسام الداخلية التي تتوزع أبنيتها بين بيوت الوزيرية ، وهن يحملن اكياس الفواكه والطعام مع كتبهن ، وقـــد أحس صلاح آنذاك ان النسيم اللاعب في أبهاء هذه الشوارع يتغلغل في بدنه ويمده بشحنة من الامان والرضى اللذين لم يعرفهما منذ شهور ٠ ولكن حديث حسين جهض كـل الـ:راح ، حيث قال له :

ـ اريد ان آخذ رأيك بموضوع !

وما هو ؟

ـ ياسمين فوزي ٠

ـ مابها ؟

ـ احبها ٠

ـ ولكنك حدثتني قبل ايام عن حبك لوصال ؟

وكسفه السؤال ، وأسكته لبضع ثوان قطعها بقوله :

ـ لم تقتنع بي ٠

ـ وياسمين ؟

ـ لا أدري ، انني أحبها فقط ، وهذا كل شيء ٠

ـ وما الذي تريدني أن أفعله لك ؟

ـ أجبني ، هل حبي لها في مكانه ؟

ثم حمل عينيه الصغيرتين منتظرا الرد ٠ فسأله :

ـ وكيف أدري ؟ ولكن قل لي هل حاولت أخذ رأيها ؟

ـ انها محلقة في غرورها ، ومحاطة بعشرات المعجبين ، ولست أول من أحبها كما تعـــرف ، كثيرون أحبوهـــا قبلي ، وكشفوا لها عن مشاعر وسطروا لها رسائل ، ولكنها لم تعط جوابها لاحد ، وتكتفي بالردود الناعمة التي لا تقود الا لدروب مسدودة ٠

وتظاهر صلاح بالهدوء محاولا اخفاء دقـــــات قلبه المتسارعة ٠

ـ حاول أن تكلمها ٠

ـ لا استطيع ٠

ـ اشعرها بأحاسيسك ، طاردها ٠ العن أجدادها ٠

وانتظر منه أن يرد ولكنه بقي صامتا · فزوى مـــا بين حاجبيه ، ثم رفع سبابته الى أعلى ، وقال وكأنه يخطب في جمع غفير :

ــ بصراحة يا حسين · أنا لا أؤمن بعواطفك ، أنت تريد امرأة فقط ، ولديك استعداد لان تحب أية واحدة تجلس معهـا منفردا لخمس دقائق ·

ثم أخذ صوت صلاح بالتباطؤ · ولكن الحماس عاد اليه بعد نفس عميق من دخان سيكارته فقال :

ــ ومع هذا فان رأيي ليس سلبيا · في الاعدادية كـانت معنا فتاتان ، احداهما قبيحة والثانية جميلة جدا ، ولذا أحبها عدد من الطلبة حتى بعض المدرسين المتزوجين ، ولكن واحدا منا وصل اليها ، ولما سألته كيف ؟ قال لانني قررت ذلك · وأنا أن تحاول مع ياسمين أيضا وستصل اليها ·

وكان حسين يركل الارض بمقدمة حذائه · ثم دارا حول الساحة التي ينتهي بها شارع المغرب لتبدأ منطـقة الكسرة · ودبدبت أقدامهما على أرض مثلمة بفعل الحفريات المختلفة · وألقى نظرة عاجلة على أشجار الصفصاف والكالبتوس التي تحيط بالساحة شعثاء مكسرة الاغصان· وكانتأنوار المصابيح تحيل الشارع الى هودج صامت لا يتبعه هتاف · صعد صلاح زفرة وتساءل :

ــ هل لهجتي ثقيلة عليك ؟

فردد حسين :

ــ أبدا ·

وحاول أن يميز ملامحه وهو يطلق رده السريع ولكنه لم يفلح ، فعقب :

ـ لن ألومك اذا أحببتها فهي فتاة هائلة ٠

ثم أخذ يلعق شفتيه بعد أن أطلق حكمه ، منتظرا ردا ما من حسين ، ولكنه لم يقل شيئا ٠

كان الشهر في أوله ٠ وما زالت في جيبه بقية من نقود ٠ نظر الى ساعته فوجدها تربو على الثامنة ببضع دقـــــائق ٠ فاستأذن من حسين ، واستأجر سيارة تاكسي أقلته الى نادي المحامين في العيواضية ٠

وعندما دخل النادي وجد عبد الحميد الفلوجي معتكفا مع كأسه في جلسة متوحدة ٠

ـ كيف حالك أيها المذيع القذر ؟

أجابه وهو يمسح فمه بقطعة كلينكس :

ـ أن المذيع القذر هو الذي مهد لك طريق الشهرة أيهـــا القروي الساذج ٠ ولولاه لما أطل وجهك الكالح علـــى جمهور التلفزيون في برنامجي العظيم « فنانون واعدون » ٠

ـ من منا القروي الساذج ؟ انني أنحدر من مركز لواء أنجب العديد من العظماء وعلى رأسهم أنا ، بينما تنحدر أنت من قرية أعظم من أنجبتهم أصحاب مطاعم الكباب ٠

وترددت ضحكاتهما الصاخبة في أبهاء الحديقة ٠ وأخذ عبد الحميد يضرب بكعب قدحه على وجه المـــائدة ٠ وعندما حضر النادل أمره :

ـ هات ربع عرق للاستاذ ·

ومضى النادل مسرعا ليلبي الطلب · فتساءل صلاح :

ـ على حسابك ؟

ـ لا طبعا ·

ـ أيها القذر ، أين الكرم اذن ؟

ـ هل أنا صاحب معمل عرق ؟

ثم أردف :

ـ لولاي من يجيء بك الى مثل هذه الاماكن الراقية ؟ إن جل ما تحلم به سكرة في احدى حانات شارع أبي نواس ·

ـ انها اكثر التصاقا بالجماهير من ناديك هذا الذي أكاد أتحنط كلما جلست فيه ·

وخلع سترته بعد ذلك ووضعها على كرسي فارغ جواره · وملأ كأسه وأخذ رشفة منها · أعقبها بقطعة خيـــار مملحة ، حشرها في فمه ، وترك أسنانه تسحقها بتلذذ ·

وبدأ حديثهما المعهود في السياسة ، وأقالا حكومات وأسقطا زعماء ، وزحفت الخمرة لتزحزح عرش الرؤوس · ثم جاءت فترة النكات الباردة، فتلاقفت الأفواه القهقهات وتراشقت بها ·

وبعد فترة همس عبد الحميد كمن يفشي سرا :

ـ الوضع متوتر جدا · والجيش في حالة انذار قصوى ·

وعقب صلاح :

ـ والكليات ستضرب جميعها خلال اسبوع ·

وبدأ عبد الحميد بمراقبة الحضور ، واستعراض الموائد ، وهو يعض بانفعال على أطراف شاربيه الاشقرين · وعندمـــا

أطرق بان جبينه عريضا، وهو يلتمع في وجهه الابيض الشاحب.
ثم رفع الى صاحبه عينين جاحظتين تأمله فيهما برهة ثم قال :

ـ أتريد الصدق يا صلاح ؟ ما يهمني اليوم هـو السفر فقط ، هذا ما أعمل من أجل تحقيقه. كل شيء مقرف، ومعاملتي ما زالت تدور منذ شهرين بين وزارة الخارجية والاذاعة . ولم أحصل على اية نتيجة ، ويبدو ان السلطة لا تطمئن الي ، وأنا مقتنع بأن وظيفة ملحق صحفي في احدى سفاراتنا ستضعني بعيدا عن المشاكل سيما وانا في الاذاعة مكمن الخطر . وكل انقلاب يستهدفها أولا ليبث بياناته باسم الشعب والجمـــاهير وبناء على ما تقتضيه مصلحة البلاد الى اخر هذه المعزوفة التي صدعت رؤوسنا .

وخبط بيده على المائدة وهو يقول :

ـ يخيل الي ان الخطأ كبيـر ويصعب الوقوف بوجهه . لقد اختبطت البلاد كلها .

وبدأ احساسه اليائس أوجع من كل أحاسيسه الاخرى اللابطة في صدره بانفعال .

وردد صلاح وهو شارد البال :

ـ انت يائس جدا .

وضيق عينيه تحت حاجبيه الكثين وهو يقول مغضبا :

ـ أليس من حقي أن أعيد النظر في حياتي ؟ في فتـرات بطالتي لم تمتد الي يد . وكان علي أن أقدم التنـــازلات حتى أعيش ، ان المسألة قاسية جدا وقذرة ولا اخلاقية . وأول ميدان

يحاربوننا فيه هو ميدان الرزق ، فجأة تجد نفسك أنت وشهادتك العالية مطرودا وملقى في الخارج . بينما يأكل الوليمة ويتمتع بالامتيازات الكبيرة عدد من التافهين والانتهـــازيين وماسحي الاكتاف .

ـ أهذا ما توصلت اليه ؟

ـ نعم . انهم يخضعوننا لعملية تركيب دنيئة .

ـ نعم . انهم يخضعوننا لعملية تركيب دنيئة .

ـ عوائل مناضلة كثيرة آلت الى حال مؤلم بعـد سجن معيليها أو فصلهم . حوادث تشيب شعر الرأس ، وتجعل المرء يرتجف ذعرا . وحري بك يا صلاح وانت ما زلت طالبا أن لا تقحم نفسك في الدروب الشائكة .

ثم توقف فجأة ، واخذ يخبط بيده على فخذه . وبعد ان هدأ وضع وجهه بين راحتيه . ورغم الصمت الذي ارتكن اليه ظل فحيحه العالي يختلج في صدره .

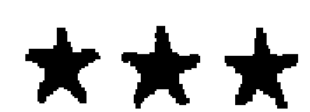
وتطلع صلاح عبر فناء النادي ، وموائد السكارى ، وهو يسأل :

ـ وبعد ؟

أجاب وهو يشدد على مخارج كلماته :

ـ اريدك أن تستعيد ما قلته لك بجد ولا تعتبـــره مجرد ثرثرة يطلقها سكير في أوج تألقه .

وشعر صلاح بالرغبة في مواصلة النقاش ، ولكنه امتنع عن ذلك مراعياً وضع صاحبه الدقيق .



وظل صلاح في جلسته الخرساء رافسا العشب الجفيف تحت قدميه • وكانت ضوضاء الطلبة تتسرب اليه من شباك النادي القريب الى مجلسه •

وظلت الحكايات تنسكب من رأسه كصنبور ماء فتح الى اقصاه ، وعندما لمح خالدة تدخل النادي أراد أن يلحق بها ليسألها عن نتيجة حوارها مع ياسمين ، ولكنه شعر بالخور من اداء ذلك ، فنهض باتجاه معتكف سعدون الصفار ، وألقى بجسده اللائب على كرسي فارغ جواره •

وهب سعدون متسائلا :

ـ ما بك ؟

أجاب متهربا :

ـ مصدوع ، خمرة نادي المحامين رديئة هذه الايام •

وهنا صاح سعدون :

ـ أكنت هناك البارحة ؟

وهز رأسه بالايجاب •

ـ مع من ؟

ـ مع عبد الحميد الفلوجي كالعادة •

فتمتم سعدون :

ـ لقد قلبت الدنيا راسا على عقب بحثا عنك •

ـ ماذا أردت ؟

ـ أن أقترض منك دينارا •

- ٨ -

من أوراق صلاح كامل
(تشرين الأول ١٩٧١)

بدأت الحرارة بالانحسار التدريجي ، لذا أوقفت آلات التبريد في الوزارة منذ أيام • قمت من مكاني وفتحت النوافذ الزجاجية العريضة بعد ان أزحت الستائر •

كان النهار في أوله ، الشمس لم ترفع قامتها المديدة بعد • وارتمت نظراتي فوق سطوح المنازل المحيطة بالوزارة ، واتخذت لها مدبا فوق صفائح المياه ، واسرة الفنادق الحديدية ، ورؤوس اشجار الكالبتوس المتسامقة • ثم سحبت جسدي وعدت به الى كرسيه لاواصل العمل في تصميم تركته منذ الامس دون ان أتمه •

وقبل أن امسك بالقلم سمعت طرقا على الباب فانطلقت حنجرتي لتقول :

ــ تفضل •

ودخل علي سعدون الصفـــار صارخا بصوته الذي لم تفارقه رنة التهريج :

ـ هنئني بسرعة ، هيا ٠

ونهضت مرحبا به وأنا اتساءل :

ـ على ماذا ؟

ـ خطبت وانتهيت ٠

ـ بهذه السرعة ؟

ـ نعم ٠ خير البر عاجله ٠

ـ متى ؟

ـ قبل يومين فقط ٠

ثم جلس قبالتي ، واوقف لسانه الذلق عن الدوران٠ كان لونه قد اديس قليلا ، وكأنه من سلالة افريقية ٠ ونبتت علـــى جبينه العريض دملة كبيرة ، وبدا منهوك القوى وهو يتطلع الي بعينيه الكابيتين ، وقد بهت كل ذلك الفرح اللامبالي الذي كـان يلونهما ٠ وأطلق صوته بلهجته الساخرة :

ـ بعد ان أحببت بقدر شعر رأسي مـــن النساء أخطب واحدة كانت جارتي قبل عشرة أعوام ولم أرها الا بعـــد ان خطبتها قبل يومين ٠

ثم نهض وأحكم شد حزامه ٠ وأدخل فيه أطراف قميصه التي تهدلت ، وخرجت من مكانها ٠ ثم أعــــاد اطباق أزرار قميصه العلوية واخفى زيقه العريض ٠ ورددت وأنا أتأمله :

ـ خبر خرافي بلا شك ، ولكن كيف تمت هذه الخطبة ؟

وانحنى محسنا وضع جواريه التي تلف مطاطها • وهو يردد :

ـ المصعد معطل لذا تشوه مظهري •

ـ منذ متى تبحث عن الاناقة ؟

ـ منذ ان ولدت • نسيت انك كنت ترتدي قمصاني كلما كان لديك موعد عاطفي ؟

ـ ليس هذا بمهم • حدثني عن الخطوبة المباركة ؟

عاد الى الجلوس • ثم رفع رأسه الي وأنشأ يقول :

ـ كنت منطرحا على ظهري ، ولا أدري كيف مرت ببالي ذكرى عائلتها ، فنهضت وأسرعت الى أمي لأسال عن اخبارها • فأخبرتني ان الوالد قد توفي ، والبنت معلمة في بغداد • والأهم من كل هذا انها لم تتزوج • ولم أتوان عن أن أطلب منها الذهاب الى بغداد لتخطبها لي • وقد لبت أمي الطلب وتمت الامور بيسر •

ـ هكذا اذن ؟

ـ نعم • وهذا يؤكد على انني اكثر ثورية منكم •

وضحكت عاليا من تعليقه هذا الذي قال بعد أن أطلقه :

ـ وجدتها فتاة طيبة ودمثة • لا بد لي من أنثى ، والا سأجن ، الملعونات لم يعدن يلتفتن الي بعد أن تساقط شعر رأسي ، وهي تحب الرسم ايضا ، وقد أخبرتني انها كانت تطلع على دفتر رسومي في المدرسة المتوسطة عن طريق أختي ، وانها معجبة بي منذ ذلك الوقت •

ـ سحقا لك أيها الدعي ٠

وبدا لي قلقا رغم تهريجه الذي بـادرني به ٠ قدمت لـه سيكارة وأنا أؤكد له :

ـ سوف تحل مشكلتك الأولى ٠

وهز رأسه بالموافقة ثم قال :

ـ بألتأكيد ٠

وأضاف :

ـ عندما أمتلك جسد امرأة ستحـل مشكلتي المزمنة ٠ تصور جسد امرأة شابة لي وحدي ؟ آنذاك ستفتح عينـاي، وسأستطيع رؤية طريقيبوضوح ٠

ـ أنا متاكد من هذا ٠

ثم ابتسم بحيوية بددت الدهمـة المخيمة على ملامحـه وقال :

ـ ولكن هناك مسألة واحدة ٠

ـ ما هي ؟

وهتف وهو يصفق بيديه :

ـ البواسير ٠ أنسيتها ؟

وانطلقت ضاحكا ٠ فأضاف :

انها تسبب العقم اذا لم أستأصلها ، هكذا قرات فيمجلة « طبيبك » وقد جئت من أجل هذا ٠

وعاد الضحك الى حنجرتي الخاملة من جديد٠ فاضاف:

ـ انا بحاجة لعملية ترميم كاملة لجسدي · ولكن شيئا واحدا لا علاج له ·

ـ وما هو ؟

ـ الصلع ، لعنة الله عليه ·

ثم أحنى رأسه ليريني الحصاد الهائل الذي أحدثه في رأسه · فقلت له مواسيا :

ـ اشتر باروكة ·

ـ من يضمن انني لن ألقب بسعدون باروكة ؟

ـ لقب جميل ، أليس كذلك ؟

وألقى بظهره على متكأ الكرسي وهو يعلن :

ـ لا تتصور انني أدغدغك بنكاتي · ولكنني أتكلم جادا·

ثم استخرج عود ثقاب وأخذ ينبش به أسنانه · ورمى العود بعد ذلك وقال كمن تذكر شيئا :

ـ قرأت اسم خليل الراضي في القائمة الائتلافية لنقابة المعلمين عن محافظة البصرة ؟

ـ لم انتبه لهذا ·

وردد مشخصا :

ـ إنه يعرف طريقه ، ولن يتعب عن المواصلة ·

وأجبته بصوت ثاقب النبرة :

ـ انه نقيض اسماعيل العماري تماما ·

ـ ولكنه خسر الفن حتما ·

ـ مساهمته في مجال السياسة أهم سيما في هذه الفترة، الفنانون كثيرون ولكن السياسيين الجادين قلائل ·

ثم استبدت بصوته حماسة مفاجئة وهو يعلن :

ـ أريد أن أساهم في معرض جمعية الفنانين الجديد ؟

ـ رائع ·

ـ رسمت عدة أعمـــال في السعـــودية ، عن الجمــال والصحراء وآبار النفط · وسأريك اياها عندما تزور بعقوبـة لترى كيف تطورت بعد أن خرجت من سجن أساتذة الـــرسم المتحجرين ·

ورددت :

ـ سأكون سعيدا ·

ـ يجب أن تعرف خطيبتي بأن سعدون الصفار فنان كبير وليس مجرد زوج بسيط مثل الذين تعرفهم ·

ثم اسند يده الى الكرسي ووقف قائلا :

ـ والآن استأذن ·

ـ الى أين ؟

ـ سأتغدى مع خطيبتي ·

ـ أيها الداعر الكبير ·

ومد الي يده مصافحا وهو يقول :

ـ وسأذهب عصرا الى الطبيب ·

ـ ومتى أراك ؟

وسحب يده واتخذ وقفته جوار الباب وهو يعلن :

ـ لن تراني اليوم ٠

واضاف وهو يخطو خارجا :

ـ سعدون الصقار ملك خطيبته اليوم ٠

★★★

- ٩ -

القرار

(مايس ١٩٦٨)

غادر اسماعيل العماري مبنى الجـــريدة بعد أن أنهى عمله اليومي - وأخذت خطواته تعبـــر الشــارع القصير في « الكرنتينة » باتجاه بيته ٠

وكان مستغرقا في تأملاته العريضة التي أخذت تنتــابه في الايام الاخيرة فتحمله الى أرض أخرى غير هذه الارض التي تنقرها قدماه الآن ٠

في الليلة المنصرمة ضمه مجلس شرب وثرثرة مع صلاح كامل ٠ وجعله ربع العرق الذي كرعه في بار « الجندول » في حالة من الحبور نادرا ما يكون عليها ٠

ولما كان الصخب عاليا داخل البار اختارا الجلوس في شرفته ، والتي لا تتسع الا لمائدتين فقط ٠ وقد أدارا وجهيهمــا باتجاه النهر ٠ وبدا صلاح ممتلئا بالحديث والشكوى ٠ وقــد قال فيما قاله :

ـ اتعلم يا اسماعيل ان ياسمين فـــوزي تثير انتبـاهي بحدة ؟

وعاد فاستدرك :

ـ ومع هذا لن أفكر في التقرب منهــا ٠ لا أدري لمــاذا احس بأنها تضرب حول نفسها حصارا لا يمكن اجتيازه عــلى الرغم من تعاملها السهل معنـــا ٠٠ اوه ٠٠ لن أقف أمامها يوما ، هذا ما قررته ، سأرمي لها الطعم ثم أسحبه لأظل لهــا حيرة وعذابا ٠

ـ صدقني يا عزيزي انها كالأخريات ، ولكن هذا شأننــا مع أية واحدة نرغب فيها اذ نمنحها ما ليس فيها من الصفات٠ وأنا أعرف ياسمين جيدا ٠ تحدثت معها أحاديث طويلة لأغسل دماغها اللقيط ، ولكنها مدعية لاهية ٠

وتدخل صلاح قائلا :

ـ انت تظلمها ٠

ـ دعنا منها ، انهــا مزدوجـــة فظيعـــة ، وغير أمينة لادعاءاتها ، تريد أن تكون مختلفة عن الأخريات بتصريحاتهــا وكتبها وصورها التيتنشرها في الجرائد مع أي تحقيق صحفي هزيل عن كليتنا ٠

ـ أما هدى فأهل للحب ، لأنها ضائعة منسحقة، دفعتهــا ظروفها المرتبكة الى هذا الوضع المتعب ٠

وخبط صلاح على الطاولة وهو يعلن :

ـ ولكنني لست على استعداد للبقاء مع فتاة تعرفتعليها متحديا ومراهنا ، أفهمت ؟

ــ انزع عن رأسك هذه القيم البــدوية ، ثم لماذا تعتبر كلمات سعدون ادانة أبدية لها ؟

ــ اسمع يا اسماعيل · أقول لك صادقا · في هذا الرأس السخيف ما زالت تعشعش قيمي البدوية التي جبلت عليهـا · وكل تقدميتي تتلاشى عندما أواجه بمثــل هذا الامر ، أفهمت الآن ؟

ويصمتان بعض الوقت · ويبقى صوت الملاعق وهي تنقل المازة من الصحون الى فميهما لقتل لفحة العرق الحادة ·

نطق صلاح بصوت أخنّ :

ــ يقول « شتاينبك » على لسان أحد ابطــال قصصه : يستطيع الرجال أن يعتادوا أي شيء ، ولــكن الامر يستغرق وقتا ، وها أنا أتمثل برأيه في علاقتي مع هدى ·

وبعد أن أعلن جوابه هذا ، أرّث سيكارة ، وأخذ يستقبل وجه اسماعيل الذي كان مقنعا في ظلام كامل ، فوجده يصيـخ السمع اليه بانفتاح ، فتابع :

ــ هدى تجسد لي كل الصفــات التي تثيــر قــرفي واشمئزازي في المرأة ، لعوب ، غبية ، سانجة · ومع هذا فانا أريدها · ربما في المسألة شيء من العطف ، ربما ، وكم أضحك وأشعر برداءة الدور الذي أمثله ، وأنــا أصغي اليهـا وهي تحدثني عن تفاهاتها اليومية · فلان يريدني · المدرس عــلان لا يرفع عينيه عني في الدرس · اشياء مقرفــة تهبط بها كلما ظننتها ارتفعت قليلا ·

وخربش باظافره على سطح المائدة ٠ وكأنــه خولط في عقله ٠ واستمر في القول وهو يدير رقبته الى جوف البار :

ــ هذا كل شيء ، ولا أدري ماذا بعد ؟

وردد اسماعيل بهدوء :

ــ اعتبر دخولها الكلية وعلاقتها معك بداية حياة جديدة لها ٠ أتستطيع ذلك ؟

وهز صلاح رأسه بالنفي ٠ ثم قال :

ــ كيف أستطيع ؟

ــ أعتقد بأن المسألة لا تحتاج الى تعقيد أو مماطلة٠ انس كل شيء وابدأ مجددا فنحن لا نملك الوقت الفائض لكي نضيعه في السفاسف ، حدد غايتك أولا ٠ فالمرأة لا تحتاج الى هــذه الحيرة الواسعة ٠ ان وطننا اليوم يمــوج في دمه كالطعين ، وليس من الوفاء أبدا أن لا نتحرك ما دام باستطاعتنا أن نفعل ذلك ٠

ثم اضاف بلهجة حازمة :

ــ والآن أجبني هل تستطيع أن تقطع علاقتك بها نهائيا، وتعاملها كما تعامل الاخريات ؟

ــ لا ٠ لقد أدمنت مرآها ، انها العادة التي تحدث عنهــا شتاينبك ٠

ــ الى أين تريد الوصول اذن ؟

وهز رأسه حائرا وهو يردد :

ــ لا أدري ٠

واشتدت لهجة الحزم في كلمات اسماعيل وهو يقول :

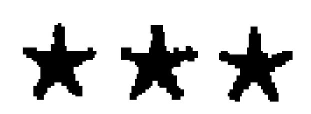
ـ يجب أن تدري ·

وكان آنذاك ممسكا بكأسه، طاويا حوله أصابعه المعروقة التي وضحت بقايا الأصباغ الزيتية عـــلى أطراف أناملها · وأحس ان صاحبه قد استخشن لهجته فقال :

ــ بعض الرجال لا يستطيع أن يؤكد وجوده الا من خلال الارتباط بامرأة ، فهذا يجعله شاعرا بالرضى ولذة الانتماء الى عالم الآخرين ، ومعايشة هموهم اليومية · وقد أحسست بهذه المسألة في فترات يأسي القاتمة ، وعندما أحببت سامية اتسع احساسي هذا وتأكد · أريد أن انتصر على غربتي وتوحدي · الدراسة المتوسطة أمضيتها في مكان ، والاعدادية في مكـان آخر · وها هي الجامعة تلقي بي في هذه المدينة الفائرة لأدرس وأعمل عصرا في جريدة لا أؤمن بخطهـــا · نقلت أمتعتي من غرف « الحيدرخانة » الرطبة الى فنادق الدرجة السادسة، الى كمب الأرمن ، الى الوزيرية ، أريد أن أحس بـــدفء الانتماء العائلي ، لذا استأجرت بيتا وجئت بأمي من العمارة لتسكن معي ، ولولا ذلك لفقدت عقلي · وأنت مثلي يا صلاح بحـــاجة الى تغيير وضعك ، ويجب أن تصدر قرارك بشأن هدى فلم يبق من السنة الدراسية غير أيام معدودات ·

وردد ببرود :

ــ أنا معك · ولكن هل هدى القرينة المرجوة ؟



وعرج اسماعيل في زقاق جـــانبي قريب من مستشفى

الشعب ، وراح يقطعه بخطوات طويلة حتى وصل بيته ·

ألقى بحزمة الجرائد التي كان يحملها تحت ابطه ثم دس يده في جيبه ، وأخذ يتمشى في رواق البيت ، ناقرا الكاشي بكعب حذائه · وأخذت أمه تراقبه · وعندما التقت نظراتهما بادرته بالسؤال : ·

ـ هل هناك شيء ؟

وهز رأسه نفيا · وحسنت الأم من وضع فوطتها فوق رأسها الأشيب ، وهمت بالذهاب باتجاه المطبخ لتهيىء فطوره، ولكنه استوقفها قائلا :

ـ لست جائعا · أكلت سندويجا في مطعم الجريدة ·

ثم أضاف بلهجة أخرى وهو يطرح كتفه على الجدار :

ـ قررت أن أطلب يد سامية · سنذهب سوية الى بيتها ·

وعاد فأوضح :

ـ سأتفق معها على الموعد وأخبرك بعد ذلك ·

ثم غادر الدار خارجا باتجاه الكلية · سلك شارع الامام الاعظم · ثم اتجه الى اليمين بمحاذاة جسر الصرافية · وكان قراره يشحن عروقه بدم جديد يجعل خطواته أكثر صلابة · وأخذ يربت بيده على صدره ، ويعقب ذلك بتنفس عميق يحس بعده ان أطنان الالم والحرمان قد أزيحت ·

وقبل أن يدلف الى الكلية دار حولهـــا دورة متأملة ، مراقبا زحف الطلبة الصباحي الى كلياتهم ·

★★★

قالت هدى عباس :

ــ اسمعوا • لقد خطبني رجل غني •

وعلق اسماعيل :

ــ خبر عظيم • سنصطف على جانبي الممـــر ونردد • جاءت البرجوازية عدوة الطبقة الكادحة •

وضحكت من تعليقه ثم التفتت الـــى سامية ونخستها بسبابتها وهي تسألها :

ــ أليس هذا أفضل من الزواج بمفلسين ؟

وعقب صلاح :

ــ ومن جاء بكما الى طريقنا ؟

ثم تكلمت هدى بحماس اكثر عندما حدست بأن كلماتها تلذ للحاضرين ، وتجعلهم يصيخون السمع اليها باعجاب •

★★★

في زيارتها الاخيرة ليعقوبة استقبلها امها بترحاب لم تألفه منها • ولكنها رمت عباءتها ، واتجهت صوب المغاسل • وجفلت عندما اصطدمت عيناها بعيني أبيها الغارق في ذهوله• وقد تربع على الارض فوق حصيرة من سعف النخيل مسندا جذعه المحنط الى الجدار • ألقت عليه نظرة قصيرة ثم دلفت الى الحمام • ولحقت بها أمها ، فالتفتت اليها وهي تتساءل بجفاء :

ــ خير ان شاء الله ؟

فردت الأم :

ـ كل الخير ٠

وملأت كفيها بالماء وهي تشيح بوجهها عن أمها وتتمتم :

ـ انني متعبة ٠ فأرجو أن تكفي عن هذه المجاملات التي لم أعتدها منك ٠

والتقطت الأم المنشفة وقدمتها لها قائلة :

ـ أنت كنز بيننا ولكننا لم نعرف قيمتك ؟

فصرخت كالمتأثة :

ـ وما الذي حدث حتى عرفت هذه القيمة ؟

ومدت يدها ملتقطة المنشفة بعصبية ٠ واستخبث صوت الأم وهو ينطق :

ـ لقد تقدم اليك أحد أغنياء بعقوبة ٠

وضحكت هدى بصوت عال جعل عيني أبيها تدوران في محجريهما ، وتسقطان عليها مبللتين بالفرح والخبل ٠

ـ أي غني هذا ؟

ـ محمود التامر ٠

ـ يا للمفاجأة العظيمة ! من الذي دله علي ؟

ـ اخته هي التي اختارتك ، لأنه يحب الرسم والمعارض ٠

وخطت هدى باتجاه غرفتها وهي تقول :

ـ على أية حال هذه مسألة لم أفكر فيها ٠

وهتفت الأم :

ـ ليس هناك من داع للتفكير ونحن أمام فرصة العمر ·

وبينما كانت تواصل النقاش مع أمها خرج أخوها من غرفته ، وقد اكتسى وجهه المنقبض ببشاشة طارئة ·

ـ أهلا بأختي العزيزة ·

وردت عليه باقتضاب وازدراء فأضاف :

ـ كيف حالك مع الدروس ؟

ـ لا باس ·

ـ أملي فيك كبير ، ونجاحك مضمون ·

وتمتمت بتهكم :

ـ نعم · عندما أتزوج محمود التامر ·

وارتبك الأخ وهو يسالها :

ـ أأخبرتك أمك ؟

ـ نعم · والا ما سر هذه المجاملات ؟

وجلست على طرف السرير طاوية ذراعيها حول صدرها · فعاد صوت الاخ ليقول لها بتوسل :

ـ هل فكرت جيدا ؟

وصرخت بعصبية :

ـ ولماذا أفكر ؟

فعلقت الأم :

ـ ستندمين على هذا القول ·

فاعترضها الاخ :

ـ أرجوك يا أمي أن تتركيني معها ٠

وعندما خرجت الأم قال لها :

ـ لا تفكري في نفسك فقط بل فكري فينا ٠

ـ أنتم لا تفكرون الا بأنفسكم ٠ قل لي : هل أرسلت لي درهما في يوم من الايام ؟ أجبني ! لقد تركتني أعيش بالمرتب الضئيل الذي تدفعه لي الجامعة شهريا ٠ وعندما تعود الى البيت تغلق باب غرفتك دوننا ، ولن تطل علينا الا طالبا آمرا٠ ولم تجعلني احس في يوم من الايام بأنك أخ لي ٠

وارتبك الاخ أمام غضبها فخرج دون أن ينبس بكلمة ٠ ودخلت الأم معلنة بوعيد :

ـ ستتزوجين محمود التامر رغم أنفك ٠

★★★

تذكرت هذه الوقائع وهي تتابع أحاديث زملائها ٠ ولاحت لها عشرات الآكام وهي تقطع الطريق أمام خطواتها ٠

هتفت سامية :

ـ لم تحدثينا عن خطوبتك !

وانتاب صوتها الراوي تخلخل وارباك وهي تتحدث ٠ وكانت تنظر الى وجه صلاح بين فترة وأخرى بحثـا عن وقع حديثها عليه ٠ ولكنها لم تجد غير غموض أبكم ٠ حملقت فيه بحنق ظاهر ثم نهضت واقفة فجاءها صوته مغمغما :

ـ الى اين ؟

قالت :

ـ لأنجز لوحتي ٠

ونكس رأسه ثانية دون أن يشيعها بنظرة اذ كان حديثه الاخير عنها مع اسماعيل ماثلا في ذاكرته ، كابحا اية مبادرة يبديها ٠ وتعلقت به نظرات اسماعيل برهة ٠ سأله بعدها :

ـ وأنت الا تدخل الدرس ؟

وتمتم صلاح :

ـ لقد سجلت غائبا فلا داعي للدخول ٠

ـ أما أنا فضجر من الجلوس هنا ٠

ـ الا نذهب الى مقهى ؟

وتحمس اسماعيل للفكرة ، والتفت الى سامية قائلا :

ـ سأذهب مع صلاح ٠

ـ ومتى تكون في الجريدة ؟

ـ بعد الرابعة ٠

ـ حسنا سأتلفن لك ٠

ونهضا بهمة ، واستوقفهما صوت سعدون مناديا :

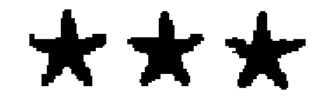
ـ الى أين ؟

أجاب اسماعيل :

ـ الى المقهى ٠

ونظر سعدون الى ساعته ثم قال :

ـ سأذهب معكما ٠



- ١٠ -

حيرة

(مايس ١٩٦٨)

استند خليل الراضي الى جدار النادي · وأخذ يراقب ساحة الكلية ، وقد تكدس فيها الطلبة المضربون عن الدوام · وكان يبدو نكدا مستنزفا وهو يسبل يديه الطويلتين ، ويرخي كتفيه ، فيبدو عنقه أطول من قياسه المعتاد · وعلـــى الجدار علقت اللافتات الملونة حاملـــة عبارات التنديـد والاستنكار لأعمال السلطة ·

قالت له خالدة عمر :

ـ لقد تصاعدت الاحداث بسرعة !

فغمغم دون أن يحول بصره اليها :

ـ طفح الكيل · هذا كل شيء ·

وجعلها جوابه تجيل الطرف حواليها وهي تردد :

ـ ولكن عدنان قطعت اخباره تماما !

ـ انه أول قربان تقدمه كليتنا مساهمة منها في الاحداث·

ثم ردد بلهجة أخرى محاولا الاحتفاظ برباطة جأشه حتى لا يظهر أمامها بمظهر الخائف المأزوم :

ـ طارده جواسيس السلطة وعملاؤها · واثار حقدهم حماسه واندفاعه العاتيان ·

ومسح بيده على شعره الناعم الصقيل الذي كان الضوء قد كساه بلمعان متموج · وتابع :

ـ لست أنسى وجه أبيه عندما جاء الى الكلية قبل أيام مستفسرا عن أخباره بعد انقطاعها · وعندما علم بالخبر قبّل يده ثم رفعها الى السماء ، وعلى وجهه تلوب شكوى كبيرة ثم استدار عائدا ·

وخرجت خالدة عن طورها وهي تتساءل :

ـ وما العمل اذن ؟

ـ سمعت أنه سيحال الى المحكمة ·

وتملكها الغضب دون أن تستطيع مقاومته :

ـ بأية تهمة ؟

ـ عقولهم تسع الابتكار ·

ثم مد يده في جيبــــه واستخرج منديله · وراح يمسح العرق المتفصد على عنقه وجبينه · فعل ذلك بسرعة ثم حشر المنديل في جيب بنطلونه الخلفي ثانية · وعندما أحست خالدة بعدم رغبته في الاستمرار بهذا الحديث استأذنته منصرفة ·

وبقي في وجومه حتى جاءه صوت صلاح :

ـ أين أنت ؟

ـ أمامك ، ألم ترني ؟

ـ لقد استيقظت بعد خروجكم بساعة ٠

ـ أيها التنبل ، أهذا وقت نوم والاضراب يعم الكليات ؟

ـ لست تنبلا ٠ ولكنني مريض بعض الشيء ٠

ونظر خليل قدامه برهة ، ثم نقـــل بصره متمليا وجه صاحبه :

ـ وما بك ؟

ـ التهاب في امعائي ٠ تورطت في وجبة رديئة تناولتها في أحد مطاعم الأعظمية ٠

وعض على شفته مقاوما وخز المغص الذي داهمه ٠ ثم احتضن بطنه بكفيه منحنيا الى الامام قليلا زافرا بألم ٠

وطلب منه خليل أن يدخل النادي ويشرب كـــأس لبن مختثر ٠ وضحك صلاح وسط ألمه وهو يتساءل :

ـ منذ متى أصبحت طبيبا ؟

ـ هذه وصفة لكل المبطونين ٠

ولم تفلح ضحكة صلاح في اعادة الصفاء الى خضرة عينيه ٠ وظلت سحابة الشحوب جاثية عليهما ٠ ولكنـــه قال مغيرا وجهة الحديث :

ـ لا أدري كيف ستحسم الامور ٠ والخوف يتملكني على مصير طلبة كلية التربية ٠ فالدبابات ما زالت محيطة بهـا منذ أيام ، وربما يقصفونها بالمدافع ٠

وهز خليل يده باستنكار :

ـ دعهم • هذا دليل افلاس السلطة التام •

وأضاف صلاح متسائلا :

ـ ومتى يبدأ المهرجان الخطابي ؟

ونظر خليل الى ساعته ثم قال :

ـ ما زال الوقت في أوله •

ورفع صلاح يديه عن بطنه قائلا :

ـ لندخل النادي اذن •

★★★

قلّب صلاح صفحات الجريدة الحكومية التي تركها أحد الطلبة على الطاولة • ودارت عيناه بين صفحاتها فلم تجد ما يقرأه ، فتمتم بحنق :

ـ سخافات ، لا شيء غير صور الحكام ، وأخبار زياراتهم وتحركاتهم •

ثم طلب من النادل أن يحضر له قدح لبن ، وزجاجة مبردات لخليل • وبعد أن لبى طلبهما أخذا يحتسيان مشروبهما بتمهل • وكز خليل على أسنانه بعد جرعتين •

ـ ما بك ؟

ـ معدتي فارغة •

ـ تركت لك بعض الفواكه وقطعة من الجبن منذ البارحة!

ـ لم انتبه لذلك •

وأضاف :

ـ ثم انني مفلس تماما •

ـ لا تهتم معي ما يكفي · اطلب فطورا ·

ـ أريد بيضتين مسلوقتين مع كوب شاي ·

وهتف صلاح صافقا بيديه :

ـ يا للفطور البرجوازي !

وكان قد شعر بتحسن في معدته بعد شربه لكأس اللبن · وطفق يمرر يده على بطنه وهو يقول :

ـ كان من الواجب أن تلتحق بكلية الطب يا خليل ، لا بهذه الكلية الفاشلة · يا للوصفة السحرية التي قدمتها لي · الألم قد زال ·

فعلق بلهجة حكيمة :

ـ اللبن دواء حتى للسم · وعندما يتناول شخص طعاما مسموما فان اللبن الدواء الذي ينصحونه بشربه ·

وأضاف :

ـ واللبن مفيد حتى للسكارى · ولذلـك علمت سعدون الصقار أن يحتفظ بقدح منه في الثلاجة دائما فهو علاجه بعد ان يفرط في الشرب كعادته ·

وقطع حديثهما دخول حسين عاشور الصاخب :

ـ الكلية تفور وأنتما هنا ؟

وارتمى على كرسي فارغ جوارهما وهو يقول :

ـ انني ممتلىء بحماس غريب ، ولكننـي لا أدري ماذا أفعل !

وعلق خليل الراضي على قوله :

ـ احبس حماسك الآن فيومه قادم ·

ولم يمكث حسين طويلا فخـــرج بنفس الصخب الذي دخل فيه ٠

تساءل صلاح :

ـ لماذا تعامله بهذا البرود ؟

ورد خليل وهو يبلع لقمته :

ـ لأنني اعترض على الكثير من تصرفاته ٠

ـ ولكنه طيب ومرح ؟

ـ لا أظنه صادقا بالكثير من ادعاءاته ٠

وهيأ لقمة جديدة ليرميها في فمه ثم قال :

ـ ان حدسي في الناس لا يكذب ٠

وأمسكا عن الكـــلام رافعين نظراتهما ليستقبلا هدى القادمة باتجاههما ، وعلى وجهها ابتسامة صباحية رائقة ٠

وبعد أن حيتهما همست لصلاح :

ـ كنت أبحث عنك !

ـ انني هنا منذ فترة ٠

وعندما انتهى خليل من تناول طعامه سألها مداعبا :

ـ هل خطبت حقا ؟

وتكسر مزاجها الرائق بسؤاله هذا ٠ ولكنها لم تتملص من الرد بل قالت باقتضاب :

ـ لا ، ولكنه موضوع لم يكتمل بعد ٠

وقرأ في ردها أمارات التملص ٠ فتوقف عن الاستمرار في هذا الحديث ، بينما التفتت الى صلاح فلم تجد غير لامبالاته

الغريبة · وظلت نظراتها عالقة في وجهه ، قارئة تحركاته ، وتشنج أصابع يده القابضة علـــى السيكارة · وعمق لون الترقب في عينيها دون أن يطفئه جواب شاف ·

سألته :

ـ متى تفرغ ؟

ـ بعد انتهاء المهرجان الخطابي ·

ـ لدي حديث معك ·

ـ حسنا ·

وسألهما خليل :

ـ ألا تنهضان ؟

فنطق صلاح :

ـ هيا ·

وسبقتهما هدى وهي تعلن :

ـ سأنضم الى الطالبات ·

ثم ولتهما ظهرها ، وهي تخطـــو بقامتهـــا المشوقة أمامهما ، وتبعاها باتجاه ساحـــة التجمع · وعندما تأمل خليل عدد الواقفين قال باستهجان :

ـ من المؤسف ان الكثير من زملائنـــــا ليسوا بمستوى المسؤولية ، وليس للاحداث اي وقع في نفوسهم ·

ـ المهم ان بيننا من يدرك مسؤولياته بوعي ·

ثم اضاف :

ـ وفي ساعات الحسم يستيقظ الجميع ·

واندمجا بالطلبة المضربين ، وضما صوتيهما الى الاصوات الهاتفة · وبدأ ممثلو الفئات الطلابية يتوافدون على المنصة · وكانت الكلمات كلها تؤكد على وجوب الاستمرار في الاضراب حتى تتحقق كافة مطاليب طلاب كلية التربية ·

★★★

في مطعم «كازابلانكا» ارتكن صلاح وهدى · وعلى الموائد المحيطة بهما توزع بعض الطلبة العشاق بعيدا عن اجواء الاضراب والحماس · وضعت هدى أناملها الطرية على معصمه مدغدغة شعيراته الناتئة · ثم قربت وجهها منه فتنفس رائحة شعرها العبقة ، وتذكر رائحة الاعشاب البرية التي كان يفترشها وهو يذاكر دروسه في الخلاء الواسع المحيط بمدينته ·

قالت :

ـ حزام ساعتك على وشك الانقطاع ·

وأجاب :

ـ أنسى استبداله ·

وتمتمت :

ـ أنت تنسى دوما ؟

وتأمل الهالتين الزرقاوين اللتين رسمهما الارهاق حول عينيها ثم قال معلقا على كلامها :

ـ أليس النسيان فضيلة ؟

ثم أضافت بلهجة ثانية :

ـ أريد أن تجيبني على سؤال واحد :

ـ وهو ؟

ـ ماذا أعني لك ؟

وأجاب بعد فترة تفكير قصيرة :

ـ لا أدري · نحن في بداية علاقتنا وعلينا أن لا نتسرع في البحث عن الاجوبة ، ووضع الاطر وفرض الاشكال ·

ـ كيف ؟

ـ أعني ان العلاقة هي التي تأخذ هويتها بمرور الايام ·

وفرت رأسها بعصبية وهي تتساءل :

ـ وما مر بنا من ايام ؟

وتمتم بفتور :

ـ ليست كافية لاتخاذ قرارات حاسمة ·

فأحست كأن عشرات المطارق قد أحالت جمجمتها الى رضاض تدوسه أقدام المارة · ولكنها تبسمت بتصنع وهي ترد شعرها عن جبينها وتقول :

ـ اسمع يا صلاح · ان خطوبتي ليست حجة اسوقها لالفت نظرك ، وانما هي واقع تهربت من اعطاء الجواب فيه حتى أعرف موقفك من علاقتنا ·

واحمر وجهه وهو يردد :

ـ أتريدين الصدق ؟ ان المسألة قد فاجأتني · ولم أدر كيف اتخذ قرارا فيها ·

واخذ منخراه ينفتحان مع تنفسه وكأنهما يريدان الاستحواذ على اكبر كمية من الهواء ·

ـ أنت تريد ابعادي عنك بهذا الرد ؟ أليس كذلك ؟

والتمعت الخضرة الكابية في عينيه وهو يغرس نظراته المختلجة في عينيها • ثم شبك أصابعه المطروحة على المائدة • وقال :

ـ صدقيني يا هدى ان أروع الاشياء تجهض وترخص اذا اخنقناها في المواصفات والحدود •

فاستقبلت كلماته بصمت مفجوع • ثم هزت راسها محاولة ابعاده عن الانشوطة • وعندما حدجها بطرف عينه رفرفت أمامه طيور الدمع الاسيرة وهي تنطلق من عينيها •

- ١١ -

الاجتماع

(مايس ١٩٦٨)

كان الصباح في أوله، والرياح اللافحة تدور في الشوارع والساحات المشمسة · ولكن باحة الكلية كانت تفور كخلية نحل فزعة · اللافتات تربط بحوامل خشبية · والهتافات تحفظ عن ظهر قلب من قبل الطلبة · والاصرار يكز على الوجوه بشجاعة مطلقة ·

وكانت الشوارع المحيطة بمبنى رئاسة الجامعة تستقبل أفواج الطلبة الزاحفين · الارض تمور ، والهتافات لها سخونة هذا اليوم الصيفي اللاهب ، وهي تعلن جوابها الاخير بعد ان وجهت السلطة رصاصها الى صدور طلبة كلية التربية العزل ، وسال دمهم على ممرات كليتهم وفي حدائقها ، وأجهضت تلك الاحاديث الناعمة ، وتحولت الخلــوات البيضاء الى رعب وجراح · أما ذلك «الاقرع» الذي يتربع على كرسي رئــاسة الجامعة فقد اختفى صوته · وضاع دوره ، ولم يواجه السلطة بأي رد تحتمه عليه رئاسته لهذه المؤسسة الكبيرة ·

أخذ صلاح كامل يتأمل المتظاهرين · وانتقلت نظراتـــه صوب الشرطة ، وسيارات النجدة التي صفت على هيئة دآئرة متينة في وجه المظاهرات الغاضبة · وأطلق بين أسنانه شتيمة دموية ، ثم انفتل عائدا الى كليتـــه ، شاقا الجموع بكتفيه · وكانت الريح تلطم جبينه المحموم ، وتأخذ شعره الكث باتجاهها فيداريه بأصابعه المرتجفة · ويمضي في ركضه ولهاثه ·

وتلقاه خليل الراضي :

ــ أين كنت ؟

ــ ألقيت نظرة ·

ثم اندمج مع الطلبة وهم يستعدون للانطلاق · وقد أثار استغرابه مجيء سعدون الصفار المبكر ، واندفاعه الجاد في تنفيذ التعليمات بهمة لم يعرفها جسده الخامل ·

ــ مرحبا سعدون ·

ــ أهلا صلاح ·

ثم أردف وهو يمسح أنفه :

ــ قررت أن أدخل ساحة النضال من بابها ·

وردد صلاح :

ــ هذا واضح ·

ثم استمر في التطلع الى وجه صلاح قارئا فيه حيرتـــه وتعبه · فتساءل بإخاء :

ــ هل يتعبك شيء ؟

ــ لا تهتم ، ليس الوقت لهذا الآن ·

وبدأ سعدون يمسد شاربيه الوسيمين اللذين يميزانه ، ويمنحان وجهه جاذبية ورجولة ·

وجاءهما صراخ اسماعيل العماري :

ــ والان لنخرج ·

ودب سعدون الصفار مسرعا · وخشخشت أوراق الشجر اليابسة تحت قدميه · وارتفعت اللافتات والهتافات · وتقدم أعضاء لجنة الاضراب المتآلفين المسيرة · بينما اصطف موظفو الكلية وفراشيها على جانبي الممر المؤدي الى الشارع العام ، وقد كسيت وجوههم بحماس حائر لم تألفه ملامحهم الوظيفية ·

وزحفت المظاهرة محكمة ومتماسكة كأنها طود متين من الرجولة والفداء ، وقرقعت الاكف بالتصفيق · ولعلعت الحناجر بالهتاف ·

وكانت الشوارع العريضة تنقل أصداء الهتافات الزاحفة من الكليات الاخرى نحو مبنى رئاسة الجامعة الذي كان قبل سنوات بلاطا للملك ، ثم دكت الثورة أرجاءه وأحالته الى وكر للعلم والثقافة · وازدادت الهتافات وتحولت الاشجار والشوارع والبشر والبنايات وحرارة الصيف الى صرخة استنكار واحدة ذات نغم يثير رعب الحكام المترددين وتحبس انفاسهم ·

ووقف رجال الشرطة بسياراتهم وبنادقهم كالمحنطين ، وبدأت الجموع تخترق صفوفهم التي أصبحت واهية كجدران من القش · ومرت التظاهرة من أمام سيارة جيب عائدة لرجال المخابرات وقد فتح أحد أبوابها · ومد خليل الراضي رأسه في

جوفها فلمح احد المخبرين وقد أمسك بآلة التصوير ملتقطا صور المتظاهرين • ولكن اسماعيل قائلا :

ــ انهم يلتقطون صورا لنا ؟

واعلن اسماعيل بلامبالاة ساخطة :

ــ ليضعوها في فروج امهاتهم •

واخترقت المظـــــاهرات المزيد مـــن أسوار الشرطة ، وتساقطات أمام هذا العناد المدلهم كل الاجراءات القمعية التي كانت السلطة قد هيأتها • ودخلت المظاهرات مبنى رئـــاسة الجامعة وبدأت تحتل مواقعها فيه • وتوزع الطلبة بين ممرات البناء وغرفه وحدائقه الواسعة التي كان الملك يمضي فيها لياليه المتلئة • وتسلق قسم منهم الاشجار العالية ، وسطوح البنايات الصغيرة الملحقة بالمبنى •

وأخذ الخطباء يتوالون ملقين كلماتهم المنددة ، ومطالبين رئيس الجامعة بالاستقالة تضامنا مـــع الطلبة الذين داست أحذية العساكر حرم كلياتهم ، وتدفق الدم من صدورهم معمدا مسيرة الرفض •

احس صلاح بالدوار ، واستمسك بجذع شجـــرة سرو طويلة ذات فيء عريض محاولا استرداد توازنه ، وفتح زيقه ، وجعل من منديله مروحة • ولكن الاختناق صرعه وجندله على أرض كاد هواؤها أن يتوقف • فاحتضن جذع الشجرة بكلتا يديه محاولا النهوض • ولكنه لم يستطع فجلس علـى الارض مسبلا يديه امامه ككلب هاجع في الظل • واجال طرفه حواليه• كانت الاقدام تزحف من حوله مهرولة ، والصرخـــات تعلو ،

فاستند الى الجذع ثانية ، ونهض منسحبا من بين الجموع ، ولما رآه سعدون الصفار ناداه :

ـ لماذا تخرج ؟

ـ انني دائخ ، وقد وقعت ٠

ـ لاحظت شحوبك عندما كنا في الكلية ٠

ـ أتريد أن أخرج معك ؟

ـ كما تحب ٠

وأخذا يسيران باتجاه باب الخروج ٠

ـ أنعود الى الكلية ؟

ـ سيقولون اننا هربنا من المظاهرة ٠

وحك سعدون صدغه وقال :

ـ سنبحث عن مقهى أو نعود الى الشقة ٠

وأجاب صلاح بحسم :

ـ الشقة حارة الان ٠ والمروحة السقفية لن تفيـــد ٠ لنذهب الى مقهى مبرد ٠

ونطق سعدون :

ـ كما شئت ٠

وأخذا يقطعان صفوف المتظاهرين التي لم يسعها المبنى فظلت متوقفة في الساحة المقابلة له ، وفي المنعطفات القريبة من الساحة ٠ ومضيا باتجاه منطقة الكسرة بينما تلاحق نظرات سعدون المتظاهرين بفرح واصرار وهـــم يعانقون الشمس بغضب ٠

وأعلن :

ـ يجب أن نؤمن بهذا الشعب ·

ونطق صلاح :

ـ هذا تحسن كبير في موقفك ·

★★★

وفي المساء حاولت السلطة تمويه عملها باطلاق الرصاص على صدور الطلبة · فأذاعت في نشرة أخبار الثامنة بيانا أعلنت فيه ان اطلاق الرصاص كان اجراء فرديا ، وانها ستقتص من فاعليه وتحيلهم الى المحاكمة ليلاقوا جزاءهم العادل ·

وعفط سعدون الصفار وهو يستمع لهذا النبأ · وكان آنذاك مع خليل الراضي وصلاح كامل في أحد مقاهي شارع أبي نواس ·

وأطلق صلاح ضحكة مرة اندفعت بسخرية الى حنجرته المتخمة بالتبغ · وعلق خليل الراضي :

ـ لعبة غبية ·

وعاد صوت صلاح معقبا :

ـ ولكن من يصدقها ؟

★★★

- ١٢ -

الريح والسفن
(مايس ١٩٦٨)

أرخت ياسمين فوزي شعرها الاشقر على كتفيها اللدنين، بينما توزعت ذؤاباته البراقة على سعة ظهرها · وتظـــاهرت بقراءة كتاب فلسفي اقتنته مؤخرا ·

وعندما مر صلاح من أمامها أحست بالحرج منه وهي تستقبل نظراته الخضراء ، وأدركت ان حديثها مع هدى عنــه هو السبب كما أخبرتها خالدة عمر بعد ذلك · وتشبثت عيناها بهيكله تشبثا متسائلا وهو يبتعد عنها ، دافعا رقبته الى الامام، وداسا يديه في جيبي بنطاله · وانتصب من مواقفها معه ذلك الذي سألها فيه :

ـ ماذا تقرئين هذه الايام ؟

ـ دراسة عن فلسفة القرون الوسطى ·

وعلق على مهل ، ولهجة المرح في صوته :

ـ يا لراسك الرقيق من هذه الافكار الثقيلة ! الم تقولي

بانك كزوربا ؟ ان زوربا لا يتعب نفسه بهذا الهذر ، ويظن ان القراءة تحيل مدمنيها الى جرذان تقضم الورق ٠

وابتسمت وهي ترفع يدها الى أعلى وتقول :

ـ أوه ، ما الذي ذكرك بهذا ؟

وقال من جديد :

ـ ان زوربا دنيوي بتلقائية ٠ يقبل على الحياة كما تقبل الانهار على الارض البكر لتخط لها مجاري فيها ، ولم يصدع رأسه بآراء الادباء وسفسطة الفلاسفة ؟

وسارعت الى القول مدافعة :

ـ كانت افكاره مجرد وقفة مراهقة لي ثم عبرت الى جهة اخرى ٠

وبعد ان أخذ نفسا طويلا من سيكارته أسر لها :

ـ أتدرين ان استاذ الالوان يقول عنك بانك لا تصلحين للرسم ، وكان عليك أن تدخلي كلية الآداب ؟

فأجابت متذمرة :

ـ انه فنان كبير ، ولكن كأي حرفي ما هو قضى في عمله سنوات طويلة ٠

ثم أضافت :

ـ ورأسه غـــائب في لوحاته ، ولذا اشـــك كثيرا في تشخيصاته ٠

انا أرى عكس ما ترين ، وفي نظري ان العطـــاء الفني العظيم هو قدرة فطرية ، والممارسة تصقلها فقط ، واستاذنا هو التجسيد الحي لرأيي هذا ، ولو انتهت حياته لكـــانت مأساة

كبيره للفن العراقي الذي خسر منذ سنوات قطبه الاخر جواد سليم ٠

ورن صوتها الحاد قائلا بمرارة :

ــ أوه ، لا تنكرني به ، انني أعبده ، ولو كنت أعـــــرفه شخصيا لربما انتحرت كمدا عليه ٠ لقد قرأت يومياته ، وكانني أقرأ شعرا لاراغون عن الحرية وعيون الزا انها عالم من الطيبة والالوان والالفة نقيض استاذنا تمـــــاما بخشونته البدائية وهمجيته ٠

وراقبها مفتونا بانفعالاتها ، واستقبال وجهها الاخاذ لهذه الاقوال بحماس لذيذ ، وهز رأسه علامة الموافقة والاقتناع ٠ ثم أضاف قائلا :

ــ لقد قرأت هذه المذكرات ، ولكنها غير كاملة ، وقـــد عرفت ان القسم الاكبر منها لا يمكن نشره لكثرة ما فيه مـــن فضائح واسماء وعلاقات ٠

وتوسدت الغبطة المتناهية ملامحه وهو يضيف بعـــــد هنيهة من مقارعة وجهها الجميل :

ــ اتدرين يا عزيزتي بأن جواد سليم كان مصابا بالبرود الجنسي ؟

فوجدت في قوله دعابة وظرفا ، فانطلقت ضاحكة ٠ وبعد ان ارتوت علقت :

ــ هذه مسألة لا تخصنا ٠٠

فأسرع الى القول :

ـ لقد اعترف بهذا في مذكراته ·

ـ أعرف ·

وصمتا بعض الوقت ، وكأنهما ينصتـــــان الى حفيف الاشجار وقد عاثت بها الريح الصيفية اللاهبة · ومسحت بيدها على شعرها وهي تقول :

ـ ما زلت أتذكر قولته الشهيرة التي أطلقها عام ١٩٤٣ ، وفيها وضع اقدامنا على الطريق الصحيح اذ قال : ان الفنان الذي ينشد الوصول الى هدفه يجب أن يكـــــرس له كل قواه وحياته ·

ـ وهذا يعني انه سيخسرهما مبكرا ، كمـــــا حدث له بالضبط ؟

وهزت رأسها بالموافقة وهي تردد :

ـ بالتأكيد ·

ثم أضافت متمتمة بجزع :

ـ وبقي آخرون لم ينجزوا عشر ما أنجزه ·

ـ يكفيه انه قدم نصب الحرية أهم أثر فني حـــديث في العراق ·

ثم ضحك وهو يقول بسخرية :

ـ أتدرين ان أحد رجال الدين الرجعيين قد كتب ذات يوم مطالبا بتهديمه على اساس ان الانصاب كفر ، كما طلب اطفاء النار في نصب الجندي المجهول ؟

ـ قرأت هذا ، وأعتقد انه قد أفلح في طلبه الثاني ؟

ـ نعم ، ولو أفلح في الاول لكانت مأساة ٠

وعادت تقول موضحة وضعها :

ـ ما أريد أن أقوله يا صلاح ان استاذنا لم يكن موضوعيا عندما أشار الى وجوب دخولي كلية الآداب بدلا من هذه الكلية، ولو كنت مقتنعة بهذا لتركت دراسة الرسم دون حـــاجة الى نصيحته ، لانني أملك الجرأة على الحسم ، ولا أريد مواصلة الخطأ عنادا ٠

واستقبل ردها بابتسامة ممتنة ، وعندما أتمت قولها ، أضاف :

ـ لم هذه الحدود القاسية بين فن وآخـــر ؟ ان الفنون جميعها وسائل تعبير مختلفة عن قضية واحدة ٠ فيكتور هيجو الشاعر العظيم كان يتوقف عن كتابة قصيدة ليرسم أو بالعكس٠

ومكثت أمامه نابضة وحية ، تتدفق الفتنة من كل ملامحها وحركاتها فتملأه بحماس لذيذ ، وتدفعه لان يواصل مبارزتهـا في هذه الحديقة الخالية ، حيث يحصران خطواتهما في الظـل الذي لا يتعدى طوله الخمسة أمتار والذي أحدثته صفصافة معمرة تمتد بمحاذاة السياج الغربي للحديقة ٠

قالت وكأنها تتذكر :

ـ هناك روائي فرنسي اسمه ميشيل بوتور يقول : ان الرسامين يعلمونني كيف أرى ، وكيف أقرأ ، وكيف أؤلف ، وبالتالي كيف اكتب ، وكيف أضع اشارات على صفحة ٠

ـ اذن أنت معي ، الفنون متداخلة ، جان كوكتو أبدع في

كل الفنون ، وكـــــذلك ليوناردو دافنشي ، حتى بيكاسو كتب للمسرح ايضا ، واعتقد ان دراستك للرسم ستساعدك علـــى صقل شخصيتك الادبية ، ثم انها تبعدك عن المنـــاهج الادبية المتحجرة في جامعاتنا ٠

قالت :

ـ لدي محاولات في القصة أحاول الافادة منها في تكنيك الرسم بكل مدارسه ، اقول لك بثقة انها ستحدث انقلابا فـــي القصة العراقية ٠

ضحك وهو يقول :

ـ تعجبني ثقتك العالية بنفسك ٠

ولم يكن من اليسير عليه الاستمرار في هـــذا الموضوع ولذا ختم حديثه قائلا :

ـ ثم ان المدارس الفنية قد تبدأ في الادب ، ولكن الرسم يفيد منها اكثر، ويستغلها لصالحه كالدادائية والسريالية مثلا٠

بعد ذلك عاد الى الضحك بتماد ، فتساءلت :

ـ ما بك ؟

وتمتم من بين شفتيه وهو يتأمل سحنتها المتشنجةالجادة:

ـ أضحك من نقاشنا هذا ٠

ـ صدقني يا صلاح بانني لا استطيع أن أتحدث بمثل هذه الامور الا معك أو مع اسماعيل العماري ٠

ـ والاساتذة ما بهم ؟

ـ أراهم مجموعة من المتخلفين الذين لا يعرفون مواقعهم، ومعرفتهم منصبة في امور المحـــاضرات ليس الا ٠ تصور ان

أحدهم كان يحدثني باعجاب عن كتاب عظيم اكتشفه مؤخرا ·
أتدري ما هو هذا الكتاب ؟ انه اللامنتمي لكولون ولسون ، ولم
أتورع عن أن أقول له بسخرية وأمام بعض الطالبات : يبدو ان
اكتشافك متأخر يا استاذ فهـــذا الكتاب قرأنـــاه ونحن في
المتوسطة ·

ثم اضافت بقرف :

ــ ولكن من المضحك أن نكون طلبة لمثل هذا النموذج ·
ومع هذا نحن مجبرون على أن نهز رؤوسنا بالموافقة كثيرا على
أشياء تافهة يقولونها أو يطلبون منا رسمها أو اداءها ، حتى
نحصل على درجات عالية لنتخرج ونبدأ حياتنا العملية بعيدا
عن تحجرهم ·

وعادت لتقول :

ــ تشخيصي لحركة الفن التشكيلي عندنا انهـا متقدمة
تكنيكيا ، ولكنها من ناحية الفكر صفر ·

★★★

استعادت ياسمين فوزي ذلك الحوار العريض الماثل في
ذاكرتها جوار حوارات اخرى جرت في لقاءاتها المتلئة معه ·
وعضت على اصبعها حرقة ، وعندما لمحته وحيـــــدا مضت
باتجاهه · وتوقفت أمامه باسمة تلك البسمة المسالمة البيضاء ·
وبعد ان حيته تساءلت وهي تكتم ضحكة ناعمة :

ــ ما بك ؟

فأجاب بفتور واقتضاب :

ـ لا شيء ٠

وأرسلت ضحكة عالية جعلت جسده يرتجف من الانفعال والغضب :

ـ لماذا تضحكين ؟

فأجابت :

ـ لم أعرف بأن حقدك مدمر لهذا الحد ؟

ورفع صوته بأعلى طاقته :

ـ عندما يكون الاخرون فضوليين للدرجة التي يدسون انوفهم في شؤون الاخرين الخاصة ٠

واحتفظت بلهجتها المصافحة وهي تتساءل :

ـ ومن مثل هذا ؟

ـ أنت ٠

ـ أليس من المحتمل أن تكون واهما ؟

وكبحه سؤالها ، وشرع ينظر الى وجهها وهي ترفعه اليه بينما تعبث أصابعها البيضاء القصيرة بسلسلتها الذهبية المتدلية من جيدها الاغيد ٠ وأخذ يراقب اثر فظاظته في عينيها محاولا ايجاد رد مناسب يحسم هذا الموقف المتشنج ٠ وكانت باحة الكلية من حولهما قد اخليت من الطلبة تماما ، وظلا وحدهما كممثلين بارعين في مسرحية مبهمة الاحداث ٠

قالت له برقة :

ـ صلاح أنت واهم في موقفك معي ٠ لقد حدثتني خالدة عن المسألة فضحكت ، وأقسم لك ان هدى غير امينة في نقل الحديث الذي دار بيننا عنك ٠

فوجد الصفح يتسرب الى لهجته وهو يعلن بحسم :

– على اية حال هذه مسألة فات وقتها ·

وكان قد بلغ من الاعياء درجة لم يعد فيها قادرا علـــى التلفظ بكلمة اخرى ·

ورفعت رأسها الى أعلى ، بحثت عن نسمة باردة في هذا النهار القائظ ، فلم تجد ملاذا غير حقل عينية · رددت رهي تدخله دون وجل :

– على أية حال أنا اعتذر عن سوء الفهم الذي حصل ·

وأوغلت في محراب الخضرة حتى أوقفتها كلماته ·

– لا تهتمي لمثل هذه الامور ·

وحملت خطواتها عائدة الى عالم الطلبة بما فيه من فرح واكتواء بعد ان استأذنته بالانصراف ·

★★★

الاشجار تتسامق محاولة معانقة ضوء الشمس اللافح ليمدها بالحياة والخضرة ، والاعشاب جذلة بمصافحتهـــــا لمساقط الضوء وهي تتسرب كخيوط ذهبية من بين الاشجار ·

اتجه صلاح بعد ان غـــــادرته ياسمين صوب سعدون الصفار حيث وجده يتوسط عالما من الحنق والدخان في معتكفه المنزوي ·

– أين أنت أيها الثرثار ؟ لماذا لا تدخل الى المرسم ؟

وخبط سعدون بيده على فخذه قائلا :

ـ انني هنا ولن أغادر مكاني ، عدتم الى الدوام ولكنني بقيت ، لا بدافع سياسي ولكن بدافع السأم ، لقد مللت ، كرهت الفن والمدرسين والسريالية والانطباعية فماذا تريدون مني ؟

ـ أيها اللعين ، أكل ذا بسبب الحب الجديد ؟

وهز رأسه باستنكار :

ـ أي حب ؟

ـ الذي يحدث من وراء السياج ؟

ـ لا تثرثر ٠

ـ لمحتك صباح اليوم ٠ وتظاهرت بالنوم حتى اراقب كل اشاراتك وتحركاتك ؟

وفاجأه قول صلاح ، فتمتم مدافعا عن نفسه :

ـ انا لا احب هذه الفتاة بل أعشق جسدها فقط ، يـــا لمحمد والمسيح ! انه جسد رهيب تصافحه نظراتي كل صباح ، مرة بأكمله ، واخرى ساقا عارية خارجة من الغطاء ٠ يا الله ! كيف تنام ؟ كيف تتقلب في فراشها الصيفي ؟

وهز صلاح راسه قائلا :

ـ لقد عرفت لماذا لا تستيقظ الا بعد أن ننزل كلنا مـــن السطح ، أيها الخليع حتى النائمات على سطوح بيوتهن بأمان لم يسلمن منك ؟

وهمس سعدون بعد ان بلع ريقه بصعوبة :

ـ وقد اضطرتني للاستمناء عدة مرات ، ابنة الكلاب ٠

واطلق صلاح ضحكة من قلبه أعادت اليه شيئا مـــن حيويته التي أجهضها الاعياء ، بينما واصل سعدون البوح :

ـ لا تخف فهي ليست الاولى ، وقد لعنت قبلها آبـــاء وأجداد كل ممثلات السينما وراقصات الملاهي ، واستحضرتهن في خيالي ممارسا عمليات استمناء حمراء ٠

ـ أيها الزاني المفضوح ٠

ونهض فاتحا زيقه بكلتا يديه وهو يردد :

ـ لقد توجهت كل النصال لي ، فلتأت أهلا بها ٠

ثم جلس بنفس الحماس مستردا أنفاسه ، ثم مد سبابته نحو صاحبه قائلا :

ـ ولكنني أعرف ان كليتكم القذرة هذه لن تنجب أعظـم مني

وشاكسه صلاح بقوله :

ـ اعظم منك فضائح ؟

ـ أتسمي ما أفعله فضائح ؟

ـ نعم ، وتزكم الانف ٠

ـ دعها تزكم الانف أو الشرج ، أو أي مكان آخر ٠

وربت على كتفه بود وهو يهمس له :

ـ اوه يا سعدون العظيم ، أنت أروع صفحة في تاريخ هذه الكلية البائرة ، صدقني ٠

وبدا البشر يتسرب الى ملامح سعدون الجهمة بعـــد كلمات صاحبه ٠ أما صلاح فقد أخذ يحك راحـــة يده بأظافره وهو ينسرح مع عواطف سعدون وصميميته التي نادرا مـــا يمتلكها انسان ٠

سأله بلهجة اخرى :

ـ هل فكرت بشيء ؟

ورفع سعدون وجهه مستقسرا :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ بعد التخرج ماذا ستفعل ؟

وردد بلامبالاة :

ـ لا أظن ان هناك أملا في التعيين ٠

ثم اضاف :

ـ فرصتي الوحيدة في السفر الى السعودية ، والعمل في التدريس هناك لامتلىء بالنقود وأتطهر من أيام البؤس هذه ٠

ـ أحلام برجوازية حقيرة ٠

ـ انتم تطلقون هذه المصطلحات بدافع الشعور بالنقص ليس الا ، ولو كنتم برجوازيين حقا لما اطلقتموهـــا ، اعطني نقودا وسمني ما شئت ٠

ـ من علمك هذه الحجج أيها السليط ؟

وأشار بيده الى رأسه وهو يسأل :

ـ وهذا الدماغ ما عمله ؟

ثم قال :

ـ ولكن اطمئن سأكون برجوازيا وطنيا ٠

واضاف ضاحكا :

ـ أليست هذه من مصطلحات الرفيقين اسماعيل العماري وخليل الراضي ؟

وبعد ان اطلق تساؤله نظر في وجه صلاح وهو يسأله بهدوء :

ـ وأنت ؟

وردد بقنوط :

ـ لم أتخذ قرارا بعد ، ولكنني افضل البقاء هنا ٠

ثم ضيق سعدون عينيه وعاد الى التساؤل ثانية :

ـ ولكن قل لي هل سمعت بالخبر ؟

وعرف صلاح قصده ، ولكنه تظاهر بالجهل وهو يسأل :

ـ أي خبر ؟

ـ خطوبة هدى عباس ٠

وتأمل صلاح بطرف عينه البسمة البارقة التي نبتت تحت شاربي سعدون الوسيمين ٠

واعترف قائلا :

ـ نعم ، سمعت ، أخبرتني به سامية ٠

وأعلن سعدون كمن اكتشف أمرا هاما :

ـ لقد وجدت أخيرا من خدع بها ٠

ثم اضاف :

ـ كنت أرشحك لهذا الدور ٠ ولكنك أفلت منها باعجوبة ٠

***

- ١٣ -

من أوراق صلاح كامل

(تشرين الثاني ١٩٧١) .

اترعت كاسي من جديد بالبيرة المثلجة ، وأخذت من زبدها حسوة . هذه اللذة أمارسها كلما اختليت لنفسي . املأ الكاس حتى تتوجها الرغوة الفائرة فاحشر وجهي فيها بعبث طفولي .. الكاس والالوان وتاريخ جلجامش الحافل .. هذا هو عالمي الذي انخرطت فيه بكليتي .. ورحت أمضي قدما .

كنت ارسم وعندما أتعب اتوقف برهة لأقرأ في الملحمة . حتى خلت جلجامش صديقي .. أدعوه الى شرب زجاجة بيرة في أحد بارات بغداد ، أو أصحبه في نزهة صيد الى الصحراء .. وأخذت من حياته مكانة انكيدو الهائل ، وتركت عينيه متوحدتين متوسلتين .

قرأت ترجمة دياكانوف الروسي ، وطه باقر العراقي ، وحفظت مقاطع طويلة مما نظمه عبد الحق فاضل عن الملحمة.. صلبت جسدي ساعات في المتحف العراقي .. عشت ذلك

التاريخ منبهرا ومولعا ، ووجدتـــه عبقا وعظيما ، وانسدحت على قاعدة التماثيل الاشورية مخططا ومتأملا • وكان حماسي لا يهدأ ولا يستكين •

تنصت لما يقوله الصياد للبغي «شمخة» ، وقرات نصيحته لها حتى توقع بأنكيدو المغتر :

(اكشفي عن عورتك لينال من مفاتن جسمك ،
لا تحجمي ، بل راوديه وابعثي فيه الهيام •
فانه متى ما رآك انجذب اليك •
انضي عنك ثيابك ليقع عليك ،
علمي الوحش الغر فن وظيفة المرأة
ستنكره حيواناته التي ربيت معه في صحرائه
اذا حفي بك وانعطف حبه اليك) •

ووقع أنكيدو في الشرك ، واقتيد الى محاريب الفتنة ، وطوقته الخطيئة بعد ان استجابت « شمخة » لنصيحة الصياد •

(نضت عنها ثيابها فوقع عليها
وعلمت الوحش الغر فن المرأة
فانجذب اليها وتعلق بها
لبث أنكيدو يتصل بالبغي شمخة ستة أيام وسبع ليال
وبعد ان أشبع منها شهوته
وجه وجهه الى الفه من حيوان الصحراء
فما ان رأت الظباء انكيدو حتى ولت عنه هاربة

وهرب من قربه حيوان الصحراء) ٠

لقد نجحت اللعبة ، وارتسمت سوءة انكيدو على هيكله المتعوب ، ولم يعد يقوى على المضي ٠ انه آدم الذي طرد من الجنه بسبب تفاحة من حواء ٠٠ الدائرة نفسها تطوق الرأس ٠

عندما أقرأ هذه السطور أزفزف جناحي ، واهيم كفراشة بين الورود ، وتبدو جدران مرسمي وكتبي والواني فضاء رحبا لا سجنا أحكمت سقاطة بابه ٠٠ وتعالت القضبان يشعة كرماح قبائل الغابات ٠٠ ووجدت انني قد خططت اكثر من سبعين صورة عن مشهد اغواء انكيدو ٠

شعرت بحاجة الى ابدال هواء الغرفة ، فتحت باب شرفتها ودفعت جسدي خارجا ٠

وملأت صدري بهواء تشرين البليل ، وأرهفت السمع الى أصوات الصبية اللاعبين في حدائق البيوت الامامية ٠ كانت بيوتا كثيرة متماثلة في اللون والطراز ، تتقدمها حدائق صغيرة طالت أشجارها حتى أصبحت تعانق أعلى جدار فيها ٠ وتسامقت بعض أشجار النخيل حتى تعذر تلقيحها ٠

واستدرت داخلا الى مرسمي لاهدم الاسوار ، وأمنح هذا الحاضر البارد حرارة الماضي وعنفوانه ٠

★★★

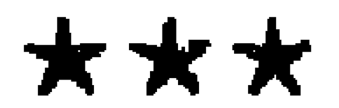
وفي صباح اليوم وصلتني اول رسالة من عبد الحميد الفلوجي الملحق الصحفي في سفارتنا بالنمسا ٠ يبدو فيها فرحا ومتفائلا ، وتذكرت انكساره الليلي الذي يعلن عنه بعد

ربع عرق في نادي المحامين ، حيث تعتلق حيرتــــه في جحيم أعماقه الكالحة ، ثم يحمله الزقاق الممتد بين النادي وشـــارع الامام الاعظم كخرافة منسية ، وهو يغزل في مشيته ويشتم العالم بهذر ملتاث .

ومما جاء في رسالته : (انني أعيش بروعة ، وقد بدأت في تعلم اللغة الالمانية وأحرزت فيها تقدما ملحوظا على الرغم من صعوبتها .

لا تتذكر كلماتي السوداء تلك والتي كنت أسكبهـــا في لحظات اليأس والثمالة .. كانت فترة رهيبة مـــــن عمري ، احسست فيها بانني مطوق ، وكل الابواب موصدة أمامي ، أما اليوم فانني انسان آخر) .

تذكرت هذه الجمل الماثلة في ذاكرتي من رسالته، وشعرت بغبطة حقيقية ، فها هو صديق آخر لي يبرأ مـــن عذابه ويبدأ بقوة من جديد . ثـــم اقتحمتني صورة اسماعيـــل العماري وصراخه المتشنج في مقهى « الهورس شو » ، وتوقفت قليلا امامها ، فاستحوذ علي انقباض فظيع ... وهمست لنفسي : لقد اختار مصيره بنفسه ولا داعي لتكليله بحكم ما .. اننـــا مستمرون وهذا هو الرائع في الامر .. لم يتوقف أحد منا .. خليل الراضي .. حسين عاشور .. اسماعيل العماري .. حتى ياسمين فوزي في أحلامها .. وهدى عباس في انتكاساتها وسعدون الصفار في زواجه ومشاريعه .



أخذت انبوبة الالوان وعصرتها علــى « البالیت » ، ثم غطست الفرشاة بمزيج الزيت والتربنتــاين ٠٠ وبدأت أهيء الالوان ٠٠ أردت أن أستخرج لونا يقارب لون الكهوف لاجعل منه خلفية لوقفة أنكيدو أمام البغي شمخة ٠٠ وقد أتعبني هذا البحث وحاولته مرات ٠٠ وعندما أمسكت به تنفست الصعداء وشتمت أنكيدو بأعلى صوتي ٠

- ١٤ -

دوار .. دوار

(مايس ١٩٦٨)

عندما دخل اسماعيل العماري كليته طالعه صلاح كامل وهو ينتصب وسط الساحة كرمز لحادثة مبهمة • وحث خطوات باتجاهه ، فاحتضنه صلاح ، وشد على يده مهنئا بخطوبته •

وابتزغت بسمة الرضى في وجه اسماعيل وهو يشكره ، ثم همس له بصداقة :

ــ اتمنى لك السعادة من كل قلبي •

وحمل نظراته بعد ذلك ، واوقفها عند عذوق نخلة قـــد ابلحت حديثا ، وتلألأ الذهب في منابت سعفها •

ثم سأله اسماعيل :

ــ وانت ماذا ستفعل ؟

فابتلع صلاح نصل هذا السؤال ، وبقي متشبثا بالعذوق وهو يجيب :

ــ لا أدري •

واستشف اسماعيل المرارة من لهجته ، فسأله :

ـ أهناك شيء ؟

وردد صلاح على الفور :

ـ لا ٠

ـ اذن ، لماذا هذه الكآبة ؟

ـ أتجد حولي ما يدعو الى الفرح ؟

ـ بامكاننا أن نصنع مبررات فرحنا ، وكذلك مبررات حزننا ٠

ـ ولكنني في وضع خاص جدا ٠

ولم يواصل اسماعيل هذا الحديث بل أمسك بيد صاحبه وكأنه ينوي أن يسر اليه بخبر مهم ، وخطابه خارجا بعيدا عن تجمعات الطلبة الصاخبة ٠ وقد قال اسماعيل خلال ذلك :

ـ الامور جرت مسرعة ٠ أنـــا خطبت سامية ، وهدى خطبت لشخص آخر ، والاضرابات أجهضت ٠

ثم اضاف متسائلا :

ـ ولكن هل عادت هدى للدوام ؟

ـ لماذا تسألني هذا السؤال ؟ ألست طالبا معها أيضا ؟

واستفز رده اسماعيل فقال :

ـ أتريد أن تخدعني ؟ أم تخدع نفسك بهذه الاقوال ؟

وتعاظم حزن صلاح أمام حصار هذا السؤال ٠ واستمر يمشي بمحاذاة صاحبه صامتا لحائرا ، واختلجت ملامحـــه بعصبية وهو يقول :

ـ ليست هذه نهاية العالم ، والطموح لن يتوقف بفقدان امرأة لا يميزها عن الاخريات شيء ٠

وأطرق اسماعيل بعض الوقت ٠ ومضت خطواتهما خارج الكلية ، وانعطفا يمينا ، واتخذا لهما مدبا على أرصفة الشوارع الفرعية المحيطة بالكلية ، وتلفظ اسماعيل بمشاعر كثيرة كانت تجيش في صدره ٠ وقد ردد صلاح من قلبه :

ـ البركة فيكما أنت وسامية ٠

وبعد هذا وجد نفسه يطلق ضحكة مجلجلة أثارت استغراب بائع مرطبات كان يقف جوار عربته ٠

كان الهواء لافحا ، والسموم تبخر ماء العين ، فيتذكر صلاح نظارته الشمسية ، يستخرجها من جيبه ويضعها على عينيه ٠

قال لاسماعيل :

ـ العلاج الوحيد لهذا القيظ السباحة في النهر ٠

وأضاف :

ـ في الكوت أقتل هذا الموسم بالسباحة ٠ أذهب الى شاطيء دجلة منذ ساعات النهار الأولى ، وأكوم ملابسي فوق رأسي وأسبح باتجاه الجزر الرملية التي يحدثها الصيهود وسط النهر ٠ وغالبا ما نحمل معنا الرقي حيث ندفنه في الرمل ليبرد ٠

وتذكر مدينته بكل صفاء ٠٠ انها قريبة من بغداد ، ولا يستغرق الوصول اليها غير ساعتين ، ولكنه مع ذلك لم يزرها

منذ أربعة شهور ، ومثل في ذاكرته وجه آمه واخوته الصغار ٠ وعربد صوت خرير المياه في السدة الكبيرة الذي اعتاده سكان المدينة وهو ينسكب من فوهاتها الواسعـــة كجـزء من اللحن الليلي الذي تنام على هدهداته عيون سكان المدينة ٠

ومرت سيارة مسرعة فتطاير الماء عليهمـــا مـن حفرة تجاور الرصيف هرستها عجلاتها ٠ واستيقظ صلاح من حلمه مكيلا السباب للسائق ، فعلق اسماعيل :

ـ لا تهتم ، الماء بركة كما تقول أمي ، وما زالت تـرشه خلفي كلما سافرت الى مكان حتى أعود اليها مسرعا ومعافى ٠

★★★

وعندما عادا الى الكلية ثانية وجدا الطلبة قد انسحبوا من الساحة العارية ممارسين طقوسهم الصيفية في اللجوء الى النادي أو أفياء الاشجار ٠ فاستقبلتهمـــا سـامية وصافحها صلاح مهنئا ، وتساءلت :

ـ أين كنتما ؟

فأجاب اسماعيل :

ـ درنا حول الكلية بحثا عن نسمة هواء ٠

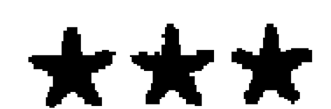
فضحكت سامية من جوابه وقالت :

ـ أعتقد ان الدخول للمرسم أفضل علاج للحر ٠

وهز اسماعيل رأسه موافقا ٠ ثم لبثوا صامتين برهة ،

كان صلاح خلالها يشرب رحيــق البشــر من عيون زميليـه العاشقين ، ويقرأ الحماس الصامت الذي تتبـادله نظراتهما بوله وحب ٠

ووجد بقاءه بينهما زائدا ، فانسحب من أمامهما ودلف الى المرسم لاتمام لوحة كان قد بدأها قبل شهر ٠



- ١٥ -

فرح الأحبة وحزنهم
(مايس ١٩٦٨)

ـ انها حبيبتي ، وأفضل ملاذ لي ٠

أطلق صلاح هذه الجملة بانفعـــال بعــد ان رشف آخر قطرة في كأسه ، مما دعا سعدون الصفار لأن يعلق بتهكم :

ـ طبعا انها حبيبتك بعد أن ضاع منك كل الحبيبات ٠

ـ أيها الدعي، هل هناك حبيبة أفضل من الكأس ؟ عندما يغدر بك الجميع ، وتوصد كل الدروب في وجهك هي حبيبتــك الامينة التي تفتح بابها في انتظار مجيئك لتلقمـــك السـلوى والنسيان ٠

ونطق حسين عاشور :

ـ انه صادق في قوله ٠

وقال خليل الراضي :

ـ هذه تبريرات نسوقها لأقناع أنفسنا بمواصلة الشرب.

وأعلن صلاح كامل :

ـ ان الخمرة ملاذ عظيم ، ولذا لا اشربها يوميا حتى يظل شوقي اليها كبيرا ، وكلما جئت اليها خلتهـــا حبيبة احتوتها ذراعاي بعد لوعة وفراق .

وهتف سعدون بانتشاء وهو يملأ كأسه :

ـ كدت أذوب من كلماتك يا ابن الشياطين .

وتلقف خليل الراضي الكلام فقال :

ـ انا اتفق مع صلاح

وقاطعه سعدون :

ـ طبعا تتفق معه ، لأنك انسان لم يحب ولم يرف قلبـــه لواحدة ؟

وابتسم خليل بثقة ثم أجاب :

ـ ومن قال هذا ؟ ولكنني أكره طريقتكما أنت وحسين في الحب ، أنتما تحبـــان الحب نفسه قبل المرأة ، وهـــذا سخف وجوع جنسي ليس الا . أما صلاح كامل فأمره مختلف .

وابتلع حسين سكين الكلام دون تعليـــق . بينما جمـــع سعدون قبضته ، وخبط بها وجه المـــائدة ، فكـادت الكؤوس والزجاجات أن تنقلب ، وصاح :

ـ سأمسح بك وجه الارض وحـــق الكعبـة الشريفة ان عدت لمثل هذه التفسيرات البطرة .

ثم هدأ قليلا وهو يردف :

ـ ولكنني بجوع أبدي للحب ، ســأخرج وادق ابواب الاقسام الداخلية كلها واصــرخ فيهن : لماذا لا تغامر واحدة منكن بحبي ايتها العاهرات لترى أي قلب أنا ؟

ثم صرخ وهو ينهض :

ـ أريد أن أحب ، ان ارقص ، أن اغني ٠

وأخذ يهز كتفيه بخفة مترنمــا بلحن مصري شــائع، وتساءل حسين موجها كلامه الى خليل :

ـ وماذا في أمر صلاح ؟

وتمتم محاولا الفرار من الرد :

ـ انه يريد اذلال كل النساء ، ويتصور انه سيمتلك الدنيا كلها بعينيه الخضراوين ٠

وانكر صلاح هذا التشخيص بقوله :

ـ لا تحكم على الامور من خلال علاقة واحدة ٠

وكان سعدون متكئا على كرسيه مرخيا ساقيه المشعرين، وقد تحرر من ملابسه ، ولم يبق مرتديا غير ثيابه الداخليــة٠ وقال محولا وجهة الحديث :

ـ أحب ان اخبركم بشيء واحد ، اعتبروه سرا ابوح به امامكم ٠

ومد رأسه الى الإمام وكأنه ينوي اسناده الى المــائدة٠ ونظر إلى وجوه زملائه الثلاثة وهي تتأمله ، وتنتظر مــا يريد ان يبوح به بفضول فقال :

ـ لا تتصوروا ان قلبي حقل تجريبي للعشق ، ادور بــه كبضاعة بين النساء ، لا ، انني أحب واحدة فقط ٠

وأفرد سبابته من بين أصابعه ، ودار بها بين وجوههم المترقبة ، وكأنه يؤدي طقوسا سحرية غريبة ، ثم اضاف :

ـ هذه الواحدة من مدينتي الرائعة بعقوبة ، وهي جارة لي ، غرفتها تجاور غرفتي في الطابق الاعلى ٠

وهب حسين معلقا بصوت أبطل سحر كلماته :

ـ ساجدة ، أليس كذلك ؟

وغربد سعدون :

ـ ومن أخبرك بها ؟

ـ أنت ، لقد نقرت اذني بالحديث عنها ٠

ـ كذاب ٠

وقهقه صلاح وهو يقول :

ـ أسرارك مفضوحة دائما ؟

وقال حسين مضيفا ، وقد اكتسى وجهه الاسمر الشاحب ببسمة انتصار وزهو :

ـ وكلما اشتقت اليها تضرب على الجدار ثلاث مـرات فتخرج من غرفتها وتتسلق صفيحة فارغة ، وتفعل انت مثلها، وهات يا حديث أليس كذلك ؟

وانسحب الحماس من وجه سعدون ، وأعاد ظهره الى مسند الكرسي ، أغمض عينيه قليلا ثم أخذ يتكلم وكانه يصطفي الكلمات ويزنها قبل أن يرميها في وجوه سامعيه :

ـ أنا أحبها ، صدقوني ٠

ـ هذا ذل يا سعدون العظيم ، ليست هناك امرأة واحدة

تستحق دمعة من رجل ، دموع الرجال شيء مقدس يا صديقي ·

وهز سعدون رأسه قليلا :

ـ انها تفهمني جيدا ، وخبيرة بكل نزواتي ، ولذا تقـول لي دائما : مهما درت وتجولت وبحثت يا سعدون ستعود الي يوما ، لأنني ملاذك الاخير ، ولذا أعلن امامكم بأعلى صـوتي: اذا تخرجت من كليتكم الحقيرة هذه خالي الوفاض فلا تترحموا علي ابدا ، بل افرحوا من كل قلوبكم لأنني ساعود الى وكري الاول ، للقلب الذي يحبني وينتظرني منذ خمس سنوات ·

وطرح ذراعيه بعد ذلك على المائدة أمامه ، وأخفى رأسه بينهما ، ثم أخذ يلهج باكيا ·

واستغل حسين عاشور فترة الهدنة هذه ، فالتفت الى صلاح سائلا :

ـ لماذا لم تخبرني بأنك ستترك هدى ؟

واستغرب صلاح من سؤاله :

ـ ولماذا أخبرك ؟

ـ حتى اخطبها انا ·

وبقي صلاح ذاهلا امام هذه المفاجأة التي باح بها زميله المخمور ، وقال له باستنكار .

ـ انها مخطوبة الآن ، وقد جاء استفسارك متأخرا ·

وكان خليل الراضي يستمع الى حديثهما · فهمس في اذن صلاح :

ـ أرأيت ؟

وأردف مؤكدا :

ـ لم اكن مخطئا في تقييمي له ٠

واسمعه صلاح رده بخفوت :

ـ انه تائق للحب فيجب ان نعامل وضعه بعطف ، وقد شخصت حالته بنفسك قبل قليل ٠

ثم التفت الى حسين وساله :

ـ وياسمين ؟

ـ ليتني لم اكشف لها عن مشاعري ٠

ـ احدثتها ؟

وهز راسه بالايجاب ، واضاف :

ـ ولكنها رفضتني ، لقد كنت الطرف الضعيف في العلاقة ، ولذا لم تعر كلماتي وتوسلاتي أي اهتمام ٠

وعاد واضاف بكآبة أعمق :

ـ حتى وصال عرضت عليها مشاعري مجددا ، فقالت انها لم تفكر بالحب والزواج ، وقد اجلتهما ريثما تحقق احلامها في العمل مذيعة في التليفزيون ٠

وتمتم سعدون :

ـ إنها تصلح ، بشعرها الأسود الحريري ، وعينيها القاتلتين ، ولكن الخنة في صوتها لا تعجبني ٠

وقال صلاح :

ـ أيها الغبي ، انك تمنحها أنوثة فائقة ، جرب أن تستمع لصوتها بدون أن تنظر الى وجهها ٠

وقال سعدون :

ـ لا أقدر ·

وعلق خليل الراضي :

ـ ولكنها نحيفة بإفراط ·

ثم غير لهجته وقال مخاطبا حسين عاشور :

ـ اسمع يا حسين ، نعود الى حديثك الان ، أقول لك أن الكبوات متوقعة دائما ، ويجب أن نضعها في حسابنا كأسوأ احتمال في أي عمل نقوم به ·

وبلع ريقه ، ثم واصل القول :

ـ لقد تعلمت هذا في السياسة قبل أن اتعلمه في الحب، لأن السياسة بالنسبة لي حب أيضا ، ولكنها حب اشمل وأهم· شاب متطلع يفتح عينيه في محلة مهملة ، ترتع فيها الامراض وتخلو من الاصحاء ، والصفرة والموت في وجوه أطفالها ، فهل أخدع نفسي بحب امرأة ؟ ماذا أفعل اذن ؟ لقد وجدت أن صرخة أبي ذر الغفاري ما زالت باقية وعالية، وليس معي سيف لأشهره ، ولكن معي قلبا نابضا فانتميت ، وجدت الخلاص في الحب الأكبر ، في العمل السياسي ، وأنتم تكذبون ، أنتم الثلاثة ، وتغالطون أيضا عندما تجعلون من المرأة قضيتكم الاولى والأخيرة ، اسماعيل العماري اكثركم وعيا للمسألة اذ قادها الى مستقرها الاخير ، وحدد المرأة التي يحبها ، والغاية من وراء هذا الحب ، ولم ينسرب وراء خرافات الخيال طويلا· لقد عاشرتكم اربع سنوات ، في السكن والدراسة ، وحديثكم لم يتبدل ، همومكم لم تتبدل أيضا ، ولكن الى أين وصلتم ؟ ها هي السنة الاخيرة على وشك أن تنقضي لتعودوا الى مدنكم،

وتتوظفوا وتتزوجوا من بنات خالاتكم او اعمامكم أو من بنات الجيران في أحسن الاحوال ، ثم يأخـــذكم المجرى الجديد ٠٠ الديون والاولاد والايجار ٠

فقاطعه صلاح وقال :

ـ أقول لك يا خليل بأن علينا أن نكون مرنين، ونعطي كل فترة من عمرنا حقها ، المهم ان نكون حقيقيين وغير مزيفين ٠ فنحن ثملون الان ، تظاهرنا واضربنـــا ، وبحت اصواتنا من الهتاف ٠ وليس هذا عملا طارئا علينا ، ولم يتعارض ابدا مع صبواتنا وعشقنا للنساء ٠ وفي رأيي يا خليل أن لا تحـــاول فرض موقفك الجاف من الحب والمرأة على احد ، فربما يفسر هذا لسبب ما في تكوينك البيولوجي أو النفسي ٠

وضحك خليل قائلا :

ـ اطمئن من هذه الناحية ٠ ولكن أعتقد ان من حقي ان أبدي رأيي ، وكل ما قلته عنكم كان حقيقة يشخصها اي مراقب دقيق لحالتكم ٠

وعاد صلاح الى القول :

ـ أذكر لك حادثة قد تبدو طريفـــة ٠ حـدثني اسماعيل العماري ان مسؤوله في التنظيم كان يحذره دائما من المرأة ، ثم ظهر بعد ذلك ان هذا المسؤول مصاب بالعجز الجنسي ٠

وانتشى سعدون من هذا القول ، ورفع رأسه المهمـوم معلنـــا :

ـ ولكن هذا لا ينطبق على خليل الراضي على الرغم من انه ليس مسؤولي ، فقبل يومين فقط ضاجع واحدة ثلاث مرات، وقد شاهدته من ثقب الباب وهو يمتطيها كأي فحل قوي ٠

وفغر صلاح فاه متسائلا :

ـ ماذا قلت ؟ قبل يومين ؟

وهز صلاح رأسه بالايجاب ٠ فأضاف صلاح بتقريع :

ـ لقد خنت العهد يا سعدون ، مساذا لو عرف صساحب السيارات بذلك ؟ سنقاد جميعنا الى المعتقل ، والامتحانات على وشك البدء ٠

وردد سعدون مزهواً :

ـ لم أفعل ذلك الا بعد ان تأكدت من ان المحل مغلق ، وصاحب السيارات الكلب في المستشفى لأجراء عملية الزائدة الدودية ٠

وعلق حسين :

ـ انه عظيم ، سعدون الصفار هذا ، ويرتب الامور دائما وفق مسارها الصحيح ٠

ثم أضاف وكأنه تذكر شيئا :

ـ ولكن لماذا لم تشاركانا معكما ؟

فهب سعدون مجيبا :

ـ كنتما في الكلية ، ولا نستطيع أن نؤخرها في الشقة اكثر من ساعة ، وقد أخذ منها خليل أفندي حصة الاسد، وأفرغ فيها كل سمومه ٠

ثم أخذ يفرك يديه بحماس ويقول :

ـ لقد دخلت الحمام معها ، وفعلناها تحت رشاش المـاء البارد ، يا الله ما أجملها من فعلة !

وهرع خليل الى القول :

ـ لقد فضحتنا أيها المشاغب ؟

وأضاف سعدون :

ـ ان كانت أموركم محتدمة لهذه الدرجة ، سأجيء لكم بواحدة ، والامر لا يستغرق الا وقتا قليلا ، ساقوم بجولة قصيرة في الشوارع المحيطة بالشقة ، ثم أصطاد غزالة تصلح وليمة لهذا المساء الساخن ؟

وأوقفه صلاح قائلا :

ـ استروا علينا أرجوكم ، الشقة مراقبة حتما ٠

وهز الأصدقاء السكارى رؤوسهم موافقين ، وتأملهم صلاح بأخاء ، ثم فتح ذراعيه وجمع رؤوسهم قريبا من رأسه، وقال لهم بثمالة :

ـ أنتم رائعون ، وبغداد بعدكم قفر وخلاء موحش ، سنبصق عليها ونعود من حيث أتينا ٠

وأعلن سعدون :

ـ أريد أن أغني ، دعوني أرجوكم٠

فرفع صلاح ذراعه عن عنقه وتركه ينهض ، وحاول سعدون أن يسيطر على ساقيه المخدرتين ، ولكنه لم يفلح ، وترنحت خطواته يمنة ويسرة وهو يصعد السلم باتجاه غرفته٠ وعندما وصلها رفس الباب بقوة ، ووقف بعض الوقت متأملا محتوياتها ٠ وانسدح على الارض للحظات ، ثم هب واقفا على صوت حسين وهو يناديه ، والتقط علبة حلويات فارغة

كان يستعملها لحفظ أدوات حلاقته، وهبط الى أصحابه مترنحا، وزلت قدمه قبل أن يطأ الارض فانفتل جســـده هاويا · ولكنه استند الى الجدار بكلتا يديه ، وواصل الهبوط ، وعندما أخذ مكانه قال :

ـ لقد جئتكم بآلة للايقاع ·

وسلمها الى حسين آمرا :

ـ اعزف لي وساغني ·

وأخذها منه حسين ، ووضعها على ركبتيه متهيئا، بينما وضع سعدون يده على خده :

(يا حلم المـا يمـر بعين ولا يخطر عـلى النـايم
أنا الهايم بدنيـا الشوك هلبت ترحـــم الهـايم)

وكان السعال ينتابه بين فترة واخرى ، فيكف عن الغناء مستردا أنفاسه ، وعندما يهدأ ، يعاوده ثانية ·

كان صوته شجيا وجريحا ، ينزف حزنه العميق بمرارة، فتتساقط عشرات النجوم من سمائهـــا دون أن تمتد اليه يـد لتلتقطها بحب ·

★★★

- ١٦ -

الجرح والضماد

(مايس ١٩٦٨)

الامتحانات وحرارة الجو تبعتان ثقيلتان تحطان على هامات الطلبة في مثل هذه الأيام المتوترة • فمع اقتراب موعد الامتحانات يزداد الجو لهيبا، وتفر الأجساد من قصف الشمس المحرقة متسترة بأخف الملابس •

انزوى صلاح كامل وسعدون الصفار تحت ظل شجرة معزولة • وكانت آثار السكر بادية على وجهيهما • أما الريح فتهب قوية لاهبة ، وتحدث حفيفا مسموعا في أوراق الاشجار، وتصفر في النوافذ والممرات • وران الصمت على جلستهم ، وظلت أصوات تنفسهما القوي تتردد كالغطيط العميق اذ لم يجدا ما يقولانه ، وكأن سكرة الليلة الماضية قد أتت على كل ما اختزناه من أقوال وحكايات •

وعندما وقعت عينا سعدون على هدى عباس وهي تتلمس طريقها باتجاه النادي لكز صاحبه بكوعه وهو يقول :

ـ انظر •

ورفع صلاح عينيه فرآها · وأخذت نظراته تلاحقها · وبباب النادي التقت بها خالدة عمر · وتغضن جبينه حنقا وهو يواصل النظر الى جسدها الناعم ، والذي كم طوقته ذراعاه ، وكم ملأ انفه بمسكه العطر ·

كانت ترتدي فستانا ورديا من الساتان الناعم ، يبرز ذراعيها العاريين ، وضمور خصرها ، واكتناز وركيها · وتذكر هذا الفستان · لقد ارتدته مرة قبل هذا ، والتقط لهما اسماعيل العماري صورا مشتركة ، وهي ترتديه ، ما زالت بين اوراقه المطمورة ·

وشبك يديه خلف راسه ، ثم دفع بجذعه الى الوراء حتى أراحه على ظهر الكرسي · ومد نظراته الناعسة الى أمام مبحرا في الذكرى ·

وربت سعدون على ذراعه قائلا يغمز :

ــ هل نمت ؟

وانتشله السؤال من آباره · وحاول أن يقنع نفسه بأن هدى لم تعد له · وأن ليس بامكانه مناداتها فتاتيه طيعة كما كانت · لقد ذبل ذلك التاريخ وولى ، وسوف تحمله رياح النسيان بعيدا ، ولن يبقى في القلب يومذاك غير ندوب تشير الى المعارك القديمة التي خاضها وخرج منها سالما معافى ·

واحكم شد ذراعيه على عنقه كازا على أسنانه · ونقل الطرف بين خالدة وهدى ·

سأله سعدون :

ـ هل تستطيع أن تهنئها ؟

وتجهم وجهه من هذا السؤال ، ولكنه رد :

ـ أستطيع أن ابتعد عنها كليا ٠

ولم يكن راغبا في سماع تعليق آخر ٠ ولكـن سعدون الخلـيّ عاد الى القول :

ـ ولكنها لم توجه نظراتها الينا ؟

وجشّم صلاح نفسه عناء الرد :

ـ ولماذا تفعل ذلك ؟

ووكزه بمرفقه قائلا :

ـ والحب القديم يا سيدي ؟

ـ انه رهان ربحته منك فقط ٠

ـ كان البداية هكذا ٠

واومأ برأسه موافقا ، ثم اضاف :

ـ اللعب يجب أن ينتهي ٠

ثم أدار وجهه ناحية السياج ، وهو يضيف :

ـ قد احرجتها في جلستي ٠

والتمعت عينا سعدون وهو يقول :

ـ الكلية صغيرة وأينما تذهب تجدها امامك ٠

فتأفف صلاح قبل أن يعلن :

ـ أتمنى لو كان هذا اليوم آخر يوم في السنة الدراسية حتى لا ارى وجهها ولا ترى وجهي بعد ٠

ثم استخرج يده من جيبه وأخذ ينفض رمـاد سيكارته

المتساقط على بنطاله الداكن قائلا بملل :

ـ انها مثل هذا الرماد نفضتها ونظفت حياتي منها •

واقتحمت وجهه المرهق ابتسامة وضيئة ، بـرزت منها أسنانه المصفرة من التبغ والشراب • ثـــم نهض مستندا الى كتف صاحبه • ولكن سعدون استوقفه قائلا :

ـ ارأيت لوحتي عن باعة السمك ؟

وأجاب صلاح :

ـ نعم

ـ أتدري ماذا يقول عنها استاذ الانشاء التصويري ؟

ـ ماذا يقول ؟

ونهض سعدون ثم أجاب :

ـ يقول ان في لوحتي تاثيرا سرياليا فما رايك ؟

أجاب :

ـ ولماذا لا ؟ فانت شخص مرعب ، غارق في كوابيسك وأحلامك الشنيعة •

وتباله سعدون وهو يسال :

ـ هل هذا مديح ؟

وردد صلاح بضجر :

فسره ما تشاء •

وهنا صاح سعدون :

ـ ارجوك أن تعتصم بصمتك ، وتكف عن هذه الثرثرة والا رميت بك وراء السياج •

وضحك صلاح :

ـ ما زلت سكران ولن تستطيع ذلك · ثم انني ازن ضعف وزنك !

ومد سعدون ذراعه ، ثم ثناها مظهرا عضلة زنده وهو يقول :

ـ وهذه لمن ؟

وقبل أن يسمع رده ، أرخى ذراعه ثانية ، وأخذ يفرك يديه ويقول بلهجة أخرى :

ـ ثم ان مدرس الانشاء التصويري اضاف ان المضمون لدي هزيل ، ولكن التكوين موفق جدا ·

ـ بالنسبة لي أنا لا أؤمن بهذه التقسيمات ، بل أؤمن بوحدة العمل ، وأنظر الى اللوحة ككيان متكامل ، ولذا تراني لا أرسم ما لم أمتلىء بالموضوع وأقتنع به ·

ووضع سعدون يده على صدغه ، وكأن كلام صاحبه قد ذكّره بشيء · وقال بعد فترة :

ـ ولكن مدرس النقد الفني يقول ان التلاحم بين الشكل والمضمون لن يتم الا في الموسيقى !

وقال صلاح بحزم :

ـ ويتم في الرسم أيضا ، وفي الكتابة كذلك ·

وأخذت عيناه تنضحان بالعزم والثبات ، وأزيحت غمامة الخدر عن بؤبؤيهما الاخضرين ، وأضاف :

ـ أتريد الحق ؟ ان تأثرك بالسريالية ليس مأخذا · نحن

طلبة الآن ، ومن المؤكد أن تكـــون فــي أعمالنا تاثيرات من السريالية او الانطباعية او غيرهما ، ثم لا تنس بأن السريالية لم تكن حدثا اعتياديا بل كانت ثورة هشمت التفكير ذا النمط المنهـــج ؟

وهب سعدون الى القول :

ـ أقسم لك كلما قـــرأت كتابات السرياليين ، ورأيت رسومهم تبددت قناعاتي بما أنا عليه ، وشعرت بتفاهة كل ما قدمته • مرة مزقت قميصي بعد قراءة مقال عن السريالية في احدى المجلات ، ثم جلست على الارض كما يجلس ممارسو اليوجا •

وأطلق ضحكة عالية بعد ذلك ، عاد الى القول بعد ان ارتوى منها :

ـ ان ادارة ظهرك لهدى موقف سريالي أيضـــا ، أليس كذلك ؟ ولكن اطمئن ، لقد دخلت النادي ، وبامكانك أن تلتفت الآن •

ومسح فمه بمنديله وقال :

ـ أنا ذاهب •

ـ الى أين ؟

ـ سابحث عــن استاذ الانشاء التصويري لاناقشه فقد مدني كلامك بطاقة على الكلام •

ولم يعلق صلاح بشيء بل عاد ثانية الى الكرسي ، وقعد عليه متذكرا الماضي القريب بكل عقمه وخصبه • وتذكر صرخة

« ديمتري كرامازوف » في وجه « كاترين » أمام القضاة والمحلفين : « انني حتى حين كرهتك ، كنت لا أزال أحبك » ٠ ولاذ بالصمت عندما تعب من ترديدها ٠ وهز رأسه استنكارا لهذا الضعف الذي يتقاذفه ، وعجنته شائبة من الرثاء والالم وهو يتذكر صوتها المستنجد ، وهو يتضرع اليه :

ـ أنا انسانة بائسة يا صلاح ، فهل تستطيع أن تعوضني عن كل ما فاتني من مباهج وأفراح ؟ عاملني كطفلة ، اشتر لي الحلوى والدمى ، امسح بيدك على شعري ، اطرد عن حياتي كل الاحزان ، ابعد عني الالم واليأس ٠

ثم خرت على الارض كالمصلي ٠ ومد أنامله لتمسح الدمع المتحدر من عينيها ٠

وهب من مكانه ٠ وتقدم بخطوات عريضة باتجاه باب الكلية ٠ وأخذ يشق طريقه بصعوبة بين الطلاب المحتشدين في الرواق ، حتى اذا وصله طالعه هيكل اسماعيل الطويل وهو يمخر في الشارع القائظ قادما الى الكلية ٠ فتوقف لاستقباله٠ بعد ذلك سأله اسماعيل :

ـ الى اين ؟

ـ لا ادري ، لن استطيع المكوث في الكلية ٠

وتمتم اسماعيل بخفوت لم يسمعه :

ـ أيها الهارب من ظله ٠

ثم تساءل اسماعيل وهو ينظر الى ساعته :

ـ ولكن درس فلسفة الفن على وشك أن يبتدىء !

وهز صلاح يده بلامبالاة :

ـ تركته لكم ٠

ثم اضاف بخفة دم مفتعلة :

ـ انتم لا تحضرون من أجـل الدرس وانما مـن أجل استاذته !

وضحك اسماعيل معلقا :

ـ هذا الكلام غير موجه لي على اية حال ٠

وأشار الى خاتم الخطوبة في يده مضيفا :

ـ لأنني رجل ملتزم وفي طريقي الى الزواج ، ويجب أن توجهه الى سعدون الصفار الذي لم يغب في هذا الدرس أبدا ولا يختار فيه الا المقعد الامامي ٠

- ١٧ -

من أوراق صلاح كامل
(كانون الأول ١٩٧١)

تيريزا بتكوفا ٠٠ حوى بريدي اليـــوم رسالـة منها ، رسالة غير منتظرة ابدا ، وقد ابطلت استغرابي حين قالت : (٠٠ لقد تذكرتك مرارا ثم ذهبت الى جمعية الصداقة العربية البلغـــارية فعثرت على عنوانك هنـــاك ٠ كيف لم اسالك عن عنوانك قبل سفرك ؟ اين وصلت مـع صديقك جلجامش الذي حدثتني عنه ؟ وهل اتممت رسم ملحمته ؟) ٠

رسالة مطولة ٠٠ فيها ذلك الهمس المتناغم ٠٠ وكانني انصت الى ثورة البحر الاسود ، وهو يهدر كاله جبـــار ٠٠٠ تيريزا بتكوفا ٠٠٠ اواه ٠٠ انها الآلام والتمنيات التي تمضي سراعا ، ولن يبقى في القلب غير الذكرى ، وهي التي تشدنا الى الوراء كلما أردنا التوغل اماما ٠٠

الفرحة الشقراء تتوقد من جديد ٠٠ تيريزا بتكوفا ٠٠ ما زال طعمك تحت لساني كالحلوى النـــادرة ٠٠ كالضوء ٠٠

كالحلم •• كنت اقلك علاقة لليلة واحدة •• لاريع •• رقص مجنون •• ثمالة لحد الغثيان •• صراخ •• سعير •• تطهير من الوقار الزائف •• هالي غالي •• تويست •• أسماء اخرى لا اعرفها •• المهم انني كنت اهتز ، وان قيثار الليل كـــــان صاحيا •• وتلك الوجوه الهيبية تطلق صراخها وطبولها •• وتقرع صنوجها وانغامها •• ثلاث زجاجات من الفينو اختمرت بها •• وفي الظلام وعلى الرمل البارد المخضب برائحة البحر عرفت طعم جسدك •• واحسرتاه ! المسالة تبدو لي كحلم ليلي من احلام المراهقة لا اجد عنه شاهدا غير ثيـــــابي الداخلية المبللة • كيف اكظم الفرحة القديمة ؟

امسكت بالقلم ، وكتبت لها اشياء كثيرة سمحت لي بهـا لغتي الانكليزية المتعثرة ، ومما قلته لها : (تيريزا •• ما الذي أستطيعه لك ؟ انني اضرب خيامي هنا ، وجذوري أوغلت في أعماق سحيقة فكيف اقتلعها ؟

اوه يا صديقي •• هناك مثـــل لدى امي ترده دوما : الاحياء يلتقون ، ولذا سنلتقي حتما ما دمنا احياء وبنا حنين الى البحر والموج والرمال) •

ولم ادع الرسالة تمكث على مكتبي فترة اطول فربما تمتد اليها اناملي الضجرة وتمزقها •• ناديت الفراش ليحملها الى البريد •

ثم خلعت سترتي وعلقتها على ظهر احد الكراسي الفارغة واستخرجت دفتر التخطيطات ، ورجعت الى الملحمة ، انتزعتها من الدرج وبدأت اقرا فيها •• وتناسيت كل شيء ما عدا ذلك

العالم الذي لم يبق منه شاهد غير الحجـــارة والكلمات ٠٠ وتوقفت عند حلم جلجامش حيث هب فزعا ممتلئا باحداثـــه الرهيبة ، وكأن جسده المغامر قد خاضها فعلا ، وقرأت ما قاله لانكيدو :

(يا صديقي من ذا الذي ايقظني ان لم تكن انت ؟
يا صديقي رأيت رؤيا ، رأيت اننا نقف في هوة جبل ،
ثم سقط الجبل فجأة ، وكنا ، انا وانت ، كاننا ذباب صغار
ورأيت في حلمي الثاني الجبل وهو يسقط

فصدمني رمسك بقدمي ، ثم انبثق نور وهاج طغى لمعانه وسناه على هذه الارض فانتشلني من تحت الجبل وسقاني الماء فسر قلبي)

وكان انكيدو متفائلا من هذا الحلم اذ فسره قائلا :

(ان رؤياك يا صاحبي ذات مغزى حسن وبشرى سارة ، ان الجبل الذي سقط عليك هو « خمبابا » ونحن سنتغلب عليه ونقتله) ٠

اعـــدت قراءة الحلم مرات ، وبدات باختيـــار تركيب الشخوص فيه ، وفضلت أن اعبر عن هذا ضمن اطـار لوحة واحدة ٠٠ ولكن كيف اسجن احلام هذا المغامر العنيد ؟ وهل تنبض حياته الملأى على قطعة الخيش الملونة ؟

جلجامش ٠٠ ايها المجنون الذي اتى راسي المرهق ٠٠ كيف ازيحك عن رئتي لاتنفس ؟

وطرحت القلم ، وأطبقت الكتاب ، وبقيت ذاهلا ٠٠ لماذا

اخترت الموضوع الصعب ؟ لماذا لم اختر مواضيع اعتيادية ؟ وتكوينات متداولة ؟ حتى انضم الى المركـــب العريض الذي يسير فيه عشرات الفنانين الحالمين ·· واكف عن مناطحة احلام اكبر من راسي ؟

اعدت الملحمة ودفتـر الرسوم الى الدرج ، واستخرجت رسالة تيريزا يتكوفا لاقرأها من جديد ، وابحث بين كلماتهـــا المفعمة بالصداقة والشاعرية عن دم جديد يجري في عروقي المجدبة ·

طرحت راسي على مسند الكرسي واغمضت عيني برهة· ومرت طقوس الليل كلها ، وعبر الراقصـــون والسكارى الى الشطآن المظلمة ، وغابوا هناك ، وكنت بعيدا جدا ، لا اراهم ، ولم تلوح لي يد بالقدوم غير مظلات البحر المغروسة في الرمل، وهي تتمايل مع رياح الليل كعشرات السفن الشراعية المبحرة بعيدا ·

تيريزا يتكوفا يجب أن امسك بجلجامش من عنقه واشده الى سارية سفينتي ·· افهمت ؟

- ١٨ -

حيرة

(مايس ١٩٦٨)

اخذ صلاح كامل ينظر الى حشـــود الطــلاب المتجمعين والمبعثرين ، ويتنصت الى قهقهاتهم وتعليقاتهم فتبدو وكأنهـــا قادمة من عالم اخر لا يمت اليه بصلة • وركز النظر في بعض الوجوه علّه يندمج مع عالم انفعالاتها الصباحية الحية •

وعندما أراح ظهره الى جدار النادي ، وأرث سيكارة ، راح يمخر في هذا العالم المدغم • وكان صوت تنفسه واضحا، وكأن جذعا ضخما قد حط على صدره الكليل • وصحا علـــى صوت خالدة عمر وهي تهديه تحية الصباح • ورفع اليهـــا عينيه فالفاها ترتدي فستانا صيفيا ناعما يجسد نحافة جسمها، وتمنى أن تكون اخته وقد أرضعهما ثدي واحد حتى يبكي على صدرها الطيب ، ويذرف أطنانا من الدمع المختنق الذي لم يجد مسربا ينفذ منه • وشعر بالامان يعود اليه وهو يشرب بسمة وجهها الاخوي •

وسألها بعد ان رد على تحتيها :

ـ هل حضر المدرس ؟

وهزت رأسها بالايجاب · ثم تساءلت :

ـ ولماذا لم تحضر أنت ؟

ورمى نظراته بعيدا عنها وهو يردد بسأم :

ـ مزاجي سيء ·

وعادت الى التساؤل :

ـ أتدخل الى النادي ؟

وأجابها بالموافقة ، وراحت قامتها الناعمة تخطو أمامه ، وعندما لاحظت مائدة فارغة جلست فتبعها بالجلوس ·

واخذت تتطلع الى وجهه المحتقن دون أن تنطق بكلمة · وكانت خضرة عينيه قد اغبرت ، وبدأت تهدل بالقحط واليباس، فسألها :

ـ أتشربين شيئا ؟

وأجابت مسرعة :

ـ فنجان شاي ·

وصفق بيده مناديا النادل · وعندما حضر طلب منه ما أرادت · وانتبه الى القلق الذي يعسكر في وجهها هي الاخرى· فسألها باخاء :

ـ هل يضايقك شيء ؟

ـ نعم ··

ـ وما هو ؟

ـ هدى ·

وصفعته بهذا الاسم ، وكأنها ملأت فمه طينا • ولم يستطع النطق • وقدم لها في عينيه نظرة دائخة لا تريد الافصاح عن شيء •

وانطلق صوتها برنة غردة وهو يقول :

ـ صلاح ، أرجوك أن تكف عن هذه اللامبالاة •

وبقي الطين موصدا فمه وهو جالس امامها مقنعا بهدوئه ولامبالاته• وطال انتظارها واصغاؤها لأن يتفوه بكلمة• وتشاغلت عنه باستعراض الصور المعلقة على جدران النادي• مسحت جبهتها بأطراف أصابعها ، ثم هزت رأسها علامة الاسى عله يتزحزح عن عرشه النخر• وبعد زفرة ضجرة قالت :

ـ لقد عرف خطيبها بعلاقتها السابقة بك •

وأزاح الطين عن فمه وردد بضيق :

ـ وما الذي أفعله لها ؟

فأبدت دهشة كبيرة وهي تقول :

ـ وربما يفسخ الخطوبة •

فرد بمقت :

ـ لا أظن بسببي وحدي •

ـ بسبب من اذن ؟

ـ أولئك الذين سجلتهم في الحساب قبلي •

وأخذت خالدة تناقش بهدوء كل الاقوال والذرائع التي ساقها ليتملص من شرك أقوالها • وبدأ يتلاعب بالالفاظ •

ويقول أشياء كثيرة مناورا بطرق ملتوية على الرغم من عدم اعتياده لهذا من قبل ٠

وعلقت خالدة على أقواله متسائلة :

ــ هل أنت شجاع ؟

وجاء صوته جهيرا وهو يردد :

ــ أعتقد ٠

ــ اذن هل أنت على استعداد لطلب يدها اذا فسخت خطوبتها فعلا ؟

وأجاب بحدة وكأنه انتبه الى ما قادته اليه من وقيعة :

ــ وهل المسألة مساومات تحولت فيها هدى الى مقعد شاغر احتله أنا متى ما تركه غيري ؟

وبدا عليها السخط من رده ٠ وظلت منقبضة النفس ، مرتجفة الاعماق ، دون أن تنتشلها يد أو كلمة ٠

واعتقد ان الامر قد سوي الى هذا الحد فاخذ يبتسم برضى ٠ وتظاهر بالقناعة وكادت أن تخرج عن طورها عندما صرخت :

ــ لماذا تبقى لامباليا هكذا ؟

وظل جالسا في مكانه ، وقد اغمض عينيه نصف اغماضة ، وكان الامور لا تعنيه ٠ وفتح عينيه باعياء ٠ وعاد لتفحص المكان والوجوه محاولا التوقف عند شيء يتهرب به من محاصرتها له ٠

ثم علق بصوت منخفض ما زال يحتفظ بلا اكتراثه :

ـ دعيها تلاقي جزاء ما تصنعه ٠

وأضاف :

ـ ثم انني لم ارغمها على العلاقة ٠

ـ ولكنك أرغمتها على قطعها ؟

ـ لقد خرجت هدى من دائرتي ٠ أتعرفين بأن لكل شيء خاتمة ؟ وعندما نكتشف بطلان لعبة ما يجب أن نضع لها حدا ٠ هذا كل شيء ٠

وكادت خالدة أن تنتحب من جور رده ٠ فقال لها :

ـ أرجوك أن لا تحرجيني ، او تجبريني على القيام بعمل تحت ضغط انفعال طارىء ٠ لا تجعليني أفسد في لحظة ضعف جميع حياتي ، أرجوك ٠

واحست كأن في رأسها دويا كدوي الحديد المتصافق ٠ وضعت يديها على ركبتيها ثم أطرقت وهي تتمتم :

ـ لقد تخلى عنها خطيبها فعلا ٠ وهي الان فـــي القسم الداخلي تبكي حظها العاثر ٠

★★★

كانت خطوات صلاح واسماعيل تدور في شوارع وزعت عليها منازل صامتة وغامضة ٠ يخرج من بعضها نساء بعباءات سوداء ، ورجال وأطفال مزمومو الشفاه ٠ وكانت «الوزيرية»

تستسلم لهذا الركود المسائي الغامض ، وكان الحياة فيها قد توقفت عن المسير ·

لقد خرجا قبل قليل من الشقة · وكان مجيء اسماعيل العماري مفاجئا ، اذ لم يزر أصحابه في شقتهم منذ فترة ، وكان يردد كلما سألوه عن السبب :

ـ أنا رجل متزوج ولن أرتاد وكر الدعارة هذا ·

وقد استقبله سعدون الصفار عند مجيئه ضاحكا :

ـ من الذي جاء بك الى هنا ؟

وتعلو ضحكته اكثر وهو يتابع :

ـ ربما استبد بك الشوق الى ليالينا الحمراء حيث تقام وليمة المنتصرين هنا ، وتشرع أفخاذ العاهرات بلا حساب ، أليس كذلك ؟

واستمر في اطلاق هذه الكلمات الداعرة التي كان خبيرا بها ، وعندما طالعه فتور اسماعيل توقف عن الحديث · وعند ذلك سأله عن صلاح فأخبره انه نائم في غرفته ·

ومضى باتجاهه ، وفتح الباب الموارب فوجده ممددا ، وقد علا شخيره · وصفعته رائحة الرطوبة التي تجثم في الغرفة · وجلس على السرير بجانبه · وأخذ ينخسه على كتفه حتى أيقظه ·

★★★

كان الخور باديا عليهما · والنعاس يملأ عيني صلاح

الخضراوين فيحاول التخلص منه بتحريك ذراعيه أماما وخلفا مالئا صدره بهواء المساء البليل ·

قال اسماعيل العماري :

ـ أتدري بما حدث ؟

ورفع صلاح كامل راسه مستفهما ، بينما مضى اسماعيل في القول ·

ـ لقد فسخت خطوبة هدى ·

وأجاب بصوت لا اثر للاستغراب فيه :

ـ أعرف · أخبرتني خالدة ·

وعاد صوت اسماعيل الى القول :

ـ ألا تحس بمسؤوليتك في هذه المسألة ؟

وردد ببساطة :

ـ لا ·· انني خارج اللعبة ·

وازداد صوت اسماعيل حزما وهو يقول :

ـ يجب أن تخطبها ·

وانطلق صلاح مقهقها :

ـ بهذه السهولة ؟

ـ ولماذا لا ؟

ـ لست رومانسيا الى هذا الحد الغبي ·

ـ أنت واهم ·

ـ لماذا لا تدعني وتكفني شرك ؟

وزمجر اسماعيل :

ـ والضمير ؟

ـ لا دخل له في هذه المسألة • ثم لماذا تعتبرني المسؤول الوحيد عنها ؟

ـ بالنسبة لظروفها الاخيرة أنت المسؤول الوحيد • ثم انها تحبك يا صلاح ، تحبك بصدق ، أقسم لك •

وظل صلاح صامتا ، يشرب لهـاثه المتسارع ، ويقضم اضافره بانفعال • وتكلم اسماعيل من جديد ، وقد استعـاد صوته بعضا من هدوئه :

ـ لا أدري ماذا أقول بعد !

واحس صلاح فجأة بأنه كان متشنجا ، وان هذا التشنج المنغلق لا يوائم طبيعته السمحة • فحاول ان يظهر من المرح والابتسام ما لم يظهره من قبل • وقال وهو يصف حالته :

ـ اسمع يا عزيزي اسماعيل • السنة الدراسية علـى وشك الانتهاء فأرجوك أن تبعدني عن هذه المتاعب • وستجد هدى من يحبها فعلا • لماذا تستبعد ذلك ؟

ـ لدى أمي مثل تردده دوما مفاده ان السيىء الذي نعرفه أفضل من الحسن الذي لا نعرفه • ولا أدري لماذا اقتنعت فـي الاخير بأنك قادر على اعادة ترتيب حياتها مـن جديد • وان تركتها في وضعها الاستثنائي فانك ستعرضهـا الى سقوط

محتوم • انها شابة وجميلة وساخطة على نفسهـــا ايضا ، والعشرات ينتظرونها ، يفتحون ابواب سيـــاراتهم ويلوحون بمفاتيح شققهم ويهمسون بكلمات الحب المنتقاة •

واطلق المزيد من هذه الاقوال الناعمة التي بدأت تجـــد مكانها في فؤاد صلاح ، مما جعله يتساءل بحيرة :

ـ وما العمل اذن ؟

ـ اعد علاقتك معها اولا ، وبعد ان تهدأ الحـــال اطلب يدها ، وستسير الامور نحو الاحسن •

فتمتم صلاح ببرود ، وكأنه لا يصدق ما تنطق به شفتاه :

ـ دعني أفكر بعض الوقت ، أليس من حقي هذا ؟

- ١٩ -

الدمع والعيون
(٤ حزيران ١٩٦٨)

اخذت الايدي تتصافح مودعة بعضها البعض ٠ فهذا هو اليوم الاخير من أيام الامتحان ، وستغيب الوجوه عن بعضها طوال شهور العطلة الاربعة ٠

جلس صلاح كامل وخليل الراضي تحت الشجرة المقابلة لقاعة الامتحان ٠ صلاح يراجع اسئلة تاريخ الفن ليتأكد من مدى صواب أجوبته عليها ٠ وخليل يتلهى بمراقبة الساقية الصغيرة المنسابة أمامه ٠ وعندما أغراه منظر الماء انحنى قليلا ، وأخذ يمرر انامله به ٠ وكان يقطب حاجبيه بين فترة واخرى ثم ينظر باتجاه قاعة الامتحانات صامتا ومستغرقا في التفكير ٠ وتصرم بعض الوقت في الصمت الاخرس هذا ٠ وتمتم خليل بصوت ليس له :

ـ هكذا انتهى العام وفشلت الاضرابات ٠

وانتبه صلاح الى كلامه فقال :

ـ لماذا تطلق كلمة فشل ؟ انها قاسية جدا ، وأنا لا أؤمن بها ، فالاضراب لم يفشل في رأيي بل أدى مهمته ، وجعل السلطة الرجعية تعرف بأن الشعب ضدها ٠

ـ على أية حال ان أساليبها البوليسية لن تصمد طويلا ، ولن تخمد نداء السخط الذي تحمله كل الوجوه ٠

وأضاف بشجاعة وهو يرفع يده بانفعال :

ـ وأنا رجل نذرت نفسي للثورة وسأرتمي في أتونها دائما ٠

ـ ومتى قررت السفر ؟

ـ لم أحدد بعد ٠ ولكن بعد يومين أو ثلاثة على الاكثر ٠ سأذهب الى الناصرية أولا لزيارة خالتي ومن ثم أذهب الى الكوت ٠

وأردف متمما كلامه :

ـ ولكنني متردد في الذهاب الى الناصرية لانها ملأى الآن بالجنود والمخبرين ، وقد حولتها السلطة الى ثكنة كبيرة خوفا من الاحداث الاخيرة في مناطق الاهوار ٠

وتنحنح صلاح قبل أن يرفع صوته بالسؤال :

ـ اية احداث ؟

وأمسك خليل عن الكلام بعض الوقت وكأنه يشحن أعماقه بوقود المواصلة والاستمرار ٠ ثم بلع ريقه وأضاف شارحا :

ـ بعض الشبان الذين يئسوا من المظاهرات والبيانـات تجمعوا هناك وحملوا السلاح ضد السلطة ٠

وأخذ صلاح يفرك أصابعه كالمقرور الباحث عن الدفء وهو يتساءل :

ـ ألا تجد في هذا العمل رومانسية ثورية ؟

ـ المهم انه يمنح البعض فرصة رفـع السـلاح وتحويل قراءاتهم لجيفارا ودوبريه الى أفعال ٠

ـ ولكن الوضع مختلف عندنا ٠ والاحزاب التقدمية في العراق عريقة في نضالها وهي قادرة علـى أن تصنع الثورة بأسلوب آخر ٠

ـ أنا معك ، ولكنها تجربة متوقعة في فترة ضعف النظام وكثرة أعدائه ٠

ـ وما تقييم تنظيمك السياسي لها ؟

ـ قادة العمليات هم من الخارجين عن التنظيم ، والتنظيم يهاجمهم في بياناته ٠ وهم يهاجمونه أيضا في بياناتهم ٠

وطوال دقيقتين ركز صلاح نظراته الخضراء في وجـه صاحبه الوسيم الشبيه بوجه قديس هندي ٠ ثم سأله :

ـ وأنت مع من ؟

ورد على الفور :

ـ لست رجلا قصير النفس ولن انفعل بسرعة ٠

وعاد فقال :

أما اسماعيل العماري فيؤيدهم نهـائيا ٠ وقد ناقشته

في هذه المسالة وقال انه مع من يحطم الجمود ، وانه قد زهق من المظاهرات والزعاق وتوزيع النشرات السرية ٠

واقحم حسين عاشور جسده وكلماته الصاخبة علـــــى مجلسهما ٠ واركن عجيزته على كرسي فارغ قبالتهما ٠ بينما أخذت عيناه الصغيرتان الخاليتان من البريق تتنقـــــلان بين وجهيهما ٠ ثم انضم اليهم سعدون الصفار وهو يطلق الشتائم:

ـ اسئلة صعبة ٠ اذا رسبت لن أداوم بعد وحق الكعبة الشريفة ٠ هذه الكلية لن تستحق أن أمنحها من وقتي الثمين اكثر من اربع سنوات ٠

ورد خليل باسما :

ـ اجلس أولا ودعنا نتفاهم ٠

فرفع صوته حانقا :

ـ أين أجلس ؟ في حضنك ؟

ثم التفت الى الوراء بخفة ٠ وعندما لمح كرسيا فـارغا اندفع باتجاهه بخطوات سريعة ثم حمله وجاء به ٠

وبدأت ثرثرته الخرقاء :

ـ لولاكم لنجحت بامتياز ٠ ولكنت أول مرشح للبعثة ٠٠ هل هناك طلبة يسكرون في ليلة الامتحان ؟

وأجاب خليل بخفة دم :

ـ نعم ٠ نحن ٠

وانطلقوا ضاحكين ٠ تقرقع صدورهم المرهقة بالقهقهات٠

وبعد ذلك صمتوا سوية ، وكأنهم ممثلون أنهوا أدوارهم ٠ واستمر مجلسهم مشحونا بالكآبة ٠ وبدوا وكأنهم قد نسوا وجود بعضهم ٠

وانتاب سعدون الملل من هذا الوضع فبحث في ذاكرته عن نكتة أو حكاية ، وصفق بيده فجاة واعلن :

ـ البارحة امسكت بصاحب السيارات متلبسا بالجريمة٠

وسأله حسين :

ـ وكيف ؟

ـ رأيته من النافذة وهو يشير الى واحدة لتدخل في دكانه ٠ وكان واثقا من ان الشارع فارغ ولا احد يراه ٠ ولم يدر بأن عيني سعدون الصفار تريان كل شيء٠ وعندما ادخلها انقضضت عليه كما ينقض نسر كاسر على فريسته ، وقلت له بتشف : والان ماذا تقول ؟ ان مصيرك بيدي ولكنني لن افعل بك مثلما فعلت بي واستدعيت الشرطة ٠ واخذ يرتجف مذعورا وطلب مني أن أصمت مقابل مشاركته الصيد وعلى حسابه الخاص ٠

وتساءل حسين بتهكم :

ـ وهل وافقت ؟

ورد سعدون ببساطة :

ـ طبعا ، وهل تريدني أن ارفض أيها الغبي ، وأنا لم أشم رائحة امرأة منذ اسبوع ؟

ومسح أنفه بسبابته وعاد الى القول :

ـ ثم انني عقدت معه صلحا ٠

وقاطعه صلاح بقوله :

ـ وما فائدة هذا الصلح ؟ بعد يوم أو يومين نحمل اغراضنا ونرحل الى اهلينا تاركين الشقة لنزلاء جدد ٠

وعاد سعدون ليوضح :

ـ انني أفكر في المستقبل ٠ افترض انني عينت في بغداد فماذا سأفعل ؟ سأعود واستأجر هذه الشقة لاحيي عصرها الذهبي ٠ اليس هذا تصورا معقولا ؟

وعادوا الى الضحك ثانية ٠ بينما يواصل الطلبة مغادرة قاعة الامتحان ٠ وخرجت خالدة وياسمين سوية ٠ ووقفتا تتحدثان ٠ وتأملهما صلاح من وراء دخان سيكارته ٠ وعندما التقت عيناه بعيني ياسمين ابتسمت له من بعيد ٠ فشرب بسمتها بتلذذ ٠ ثم التفت الى حسين وسأله :

ـ وانت متى تسافر ؟

ـ اليوم مساء ٠ وانت ؟

ـ لم أحدد بعد ٠ بغداد أرحم من الكوت بكثير ٠

ـ ولكنني أرى العكس ٠

ـ هذا رأيي اليوم ٠

ثم نهض حسين دون أن يواصل الحديث ، ووضع يده على كتف سعدون وهو يسأله :

ـ اتخرج ؟

وهز سعدون رأسه بالموافقة · ثم هب واقفا وهو يقول مخاطبا صاحبيه :

ــ الى اللقاء في الشقة ظهرا ·

وبعد ان انصرفا التفت صلاح الى خليل متمتما :

ــ بماذا تشعر الآن وانت تــودع اخر يوم لــك في هــذه الكلية ؟

ــ أود لو أعود الى السنة الاولى لابــدأ الدراســة مــن جديد ·

ثم اضاف غامزا وهو يغير وجهة الحديث :

ــ ياسمين لم ترفع عينيها عنك ؟

وردد صلاح بحرقة :

ــ وما الذي تريدني أن أفعل لها ؟

ــ لو كان بامكاني أن أعيد ترتيب العلاقات في هذه الكلية لوضعتكما سوية ·

ــ وأنت ؟

ــ لا أدري ·

ــ لو تركت الخيار لي لوضعتك مع خالدة ·

ولم يعلق خليل على قوله بل لكزه وهو يامره :

ــ قم وودعها ·

وهز صلاح رأسه مللا وقال :

ــ لا اطيق تأدية هذه الطقوس ·

ـ أيها الهمجي ، ألم تتعلم الاصول ؟

ـ ستأتي رغما عنها وتودعني ٠

ثم اضاف وعيناه سارحتان علـــى رؤوس اشجـــار الكالبتوس الضخمة وهي تستكين للشمس والسخونة دون أن تحرك أوراقها نسمة واحدة :

ـ ذهبت البارحة أنا واسماعيل الى خال هدى ٠

ـ لم تخبرني ؟

ـ قررت ذلك فجأة ٠ لقد دلتني على دكانه في الكرادة الشرقية ٠

ـ وبعد ؟

ـ استغرب مجيئنا ٠ وأخبرنا انها مخطوبة ٠ وقد فاجأناه بقولنا ان خطوبتها قد فسخت ، ولم يعطنا ردا واضحا ٠ كما أنني لم اطمئن اليه ٠ بعض الناس تكرههم منذ أن تراهم أول مرة ٠ ثم جادلناه ولكنه نصحنا بأن نترك هذا الموضوع لما فيه من التباس ٠ وأظنه تصورنا طالبين مراهقين ليس الا ٠

ـ وهل علمت هدى بالموضوع ؟

ـ نعم ٠ تلفنت لها الى القسم الداخلي ٠

ثم أضاف بقنوط :

ـ انني أمضي ، وربما الى حتفي ، ولا أدري أي قدر مخبأ لي مع هذه الفتاة ؟

وابتسم خليل بهيئة قلقة ٠ ولم يعرف بمـــاذا يرد ، ولذا أخذ يطقطق أصابعه المخدرة ٠

واستدرك صلاح قائلا :

ـ كان خليقا بي أن لا افعل ذلك ، وأن لا أعيـــد علاقتي معها ، احس وكأنني امثل ، انه خطأ اخـــر أضيفه الى قائمة أخطائي التي اقترفها بلا حساب ولا رادع ، ولو كنت حرا الان لهرولت الى ياسمين فوزي وصرخت فيها ايتهـــا الغبية ألا تشعرين ؟ ألا تعرفين انني أحبك أنت فقط ؟

وربت خليل على كتفه وهو يقول :

ـ ستبقى حائرا يا صديقي ما دمت رهن مواقفك المطوطة، وستتساوى هدى وياسمين ٠

ـ ولكنني اعتبر قلقي جزءا من عدتي الفنية ؟

ـ أنت أسير قـراراتك الليبرالية ، المسألة ليست هكذا بالمرة ٠

وعندما حضرت هدى قطعا حديثهما ٠ وبادرها صلاح بالسؤال بعد ان جلست على الكرسي الذي كان يحتله سعدون:

ـ كيف اجوبتك ؟

ورددت بدماثة :

ـ أحسن من أجوبتك ٠

وساعدها خليل بتعليقه :

ـ طبيعي ، فهو اكسل طالب في الدنيا ٠

ثم اخذت تحسن من وضع شعرها المنسدل على جبينها ٠

وتلألأت من بين خصلاته شعرة بيضاء عندما وقعت عليها عينا صلاح صرخ بمرح :

ـ قفي ٠

ثم مد يده والتقطها ٠ وأخذ يمررها أمام عينيها وهـــو يقول :

ـ أيتها العجوز الشمطاء لن أخطبك بعد ٠

وبدأ وجهها يأتلق مع كلماته الناعمة فردت :

ـ شعرة واحدة أما أنت فعشرات ؟

ـ بسببك أنت ومثيلاتك ؟

ـ ساعدك الله ٠

ولاذت بالصمت لبضع دقائق بعد ان تعبت من ملاحقته بتعليقاتها ٠ ورددت بلهجة مطمئنة :

ـ يسافر اليوم معظم زميلاتي في القسم الداخلي ٠

ـ وأنت ؟

ـ بعد غد ٠ بعقوبة قريبة ، وذهابي لا يستغرق ساعة ٠

ـ حسنا ٠

أما خليل الراضي فكان شارد الذهن آنذاك ، مبحرا في أرض اخرى ٠ ثم حضرت ياسمين وخـــالدة وبدأت مراسيم التوديع ، وظلت ياسمين في بهائها وغطرستها وهي تصافـح هدى بلا اكتراث ، وعندما استقرت يدها بيد صلاح استبقتهـا برهة ، ثم سحبتها وهي تحني رأسها بدبلوماسية وتنسحب ٠

وبعد أن مضتا تنهدت هدى بصعوبة وهي تقول :

ـ هناك شرخ بيني وبين ياسمين لم استطع أن أردمه ·

ـ لا أعتقد ان هناك شيئا ·

ـ حدسي لا يكذب · لن أستطيع أن اكون أمامها طبيعية · وهي لا تستطيع أيضا ·

ثم قطعت الحديث وقالت :

ـ اكتب لي عنوانك ، ربما أحتاجه ·

ـ ليس لي عنوان محدد الان ، ولكن بامكانك أن تكتبي على عنوان اسماعيل العماري في الجريدة ما دمت في بغداد ·

ـ واذا ذهبت الى الكوت ؟

ـ ساكتب لك عنوان أخي ·

ثم غمزته قائلة :

ـ ولكن من قال انني أرغب في مراسلتك ؟

وانفجرت ضاحكة · وهي تسفح نظراتها العاشقة على وجهه · ثم شبكت يديها في حضنها · وراحت تحدق باتجاه الارض · التقطت عشبة جافة ، وأخذت تعبث بها بأصابعها · وعندما ملت من ذلك هبت واقفة وهي تخبره :

ـ سأودع طلاب صفي وأعود ·

ـ خذي حريتك ·· سأخرج بمفردي لدي موعد مع صديق وسأراك غدا عصرا ·

وتساءلت مستغربة :

ـ واليوم ؟

ـ سنقيم احتفالا ختاميا في شقتنا ، أما صباح غــــد فستنطلق مظاهرة كبيرة في ذكرى الخامس مـــن حزيران ٠ وساساهم فيها ٠

ورددت بخفوت :

ـ سأنتظرك في القسم الداخلي اذن ؟

ـ في الرابعة ٠

ومضت مسرعة هي وكتبها وأحلامها بينما التفت الى خليل وسأله :

ـ وأنت ؟

ـ سأبقى في الكلية لأودع الاصـــدقاء ٠ وفي الواحــدة اغادر الى الشقة ٠

- ٢٠ -

الاحتجاج أيضاً
(٥ حزيران ١٩٦٨)

بدأت الجموع احتشادها في ساحة الميدان منذ ساعات الصباح الاولى · واختبط شارع الرشيد بالزاحفين · وتوقفت حركة السيارات فيه · وفي شرف الفنادق وواجهات المخازن علقت عشرات اللافتات التي تطالب بتسليح الجماهير وتدريبها على السلاح حتى تساهم في اداء دورها التاريخي ·

وارتفعت لافتات اخرى تطالب باطلاق سراح السجناء والمعتقلين السياسيين والكشف عن شبكات التجسس التي تستر عليها الحاكمون ·

وتأجج شارع الرشيد بالهتافات الداوية عندما بدأت التظاهرة زحفها البطيء والحازم ·

وبدأ خليل يلهث ، فأشار عليه صلاح :

ـ لا تسرع هكذا ·

وأمسك بيده ، وأخذا يشقان طريقهما بصعوبة · بينما ازداد سعير الحناجر الهاتفة ·

وكانت أعمـدة شارع الرشيد تحمل صور بعض شهداء العمل الفدائي · وقد الصقت عليها باحكـام ، مذيلة بكلمات النعي التي قالتها عنهم منظماتهم · وخرج نزلاء فنادق الشارع الى الشرفات · والبعض منهم بملابسه الداخلية · وأغلقـت المخازن ابوابها ، وبقيت واجهاتها الزجـاجية محتجبـة وراء الابواب الحديدية مما زاد الشارع وحشة واختناقا ·

التفت صلاح الى خليل مقترحا :

ــ دعنا نذهب الى المقهى البرازيلي ، وننتظر التظـاهرة فيه · ان سيرها بطيء وتحتاج اكثر من ساعة حتى تصل الى هنـاك ·

ووجد اقتراحه قبولا في نفس صاحبه حيث أجاب :

ــ كما تريد ·

وعندما دخـلا المقهى ، وجداه قد فرغ مـن رواده الصباحيين ، ولم يبق فيه غير بضعة منهم · فأمـام الواجهة الزجاجية جلس رجل أصلع بدين تتدلى من يده مسبحة طويلة صفراء ، تنقرها أصابعه بملل وانتظار · أما يده الاخـرى فأمسكت بمنديل يمسح به عنقه الاشحم بين فتـرة واخرى ، ويدخله أحيانا تحت ياقة قميصه لينشف العرق الراشح هناك · وفي الزاوية قرب الخزانة الزجاجية الكبيرة التي تستعمـل لحفظ الكيك والبسكويت جلس صبي ببنطـلون قصير ، ينهض بين وقت وآخر ، ويمد رأسه من باب المقهى متطلعـا الى نهاية

الشارع وكأنه ينتظر أحدا ، ثم يعود الى مكانه ·

وكان مكان صلاح وخليل في وسط المقهى ، وتحتمروحة تدور بأقصى سرعتها ، وعندما لمحهما عبد نادل المقهى اتجه صوبهما مؤديا أول مهمة له بوضع قدحين من الماء البارد على مائدتهما · امتدت اليهما يداهما لترمياهما في جوفيهما المعتقلين على عجل ، ثم طلبا منه زجاجتي مبردات ·

وقرب خليل فمه من اذن صاحبه قائلا :

ـ اظن المظاهرة قد اقتربت

وهز رأسه مضيفا :

ـ اسمع الهتافات جيدا ، اسرع في شرب زجاجتك ·

والتقط خليل الزجاجة من أمامه ، وزرعها في فمه بعد ان دفع برأسه الى الوراء ، وسكبها في جوفه دفعة واحدة · وفعل صلاح مثله · وعندما فرغ من شربها قال :

ـ هل ننهض ؟

وظل خليل مسمرا عينيه في الواجهة · وكان العابرون يسيرون باتجاه واحد صوب المظاهرة · واجاب على تساؤل صاحبه :

ـ دعنا ننتظر بعض الوقت ·

ووقف عبد نادل المقهى أمامهما ليلتقط الزجاجتين الفارغتين · وقال لهما :

ـ وصلت المظاهرة الى منطقة رأس القرية ·

فالتفت صلاح الى صاحبه قائلا :

ـ ألم اقل لك دعنا ننتظر ؟

وبعد ان اطلق كلماته ، صرف بأسنانه تعبا وانفعالا ، ثم رفع رأسه الى أعلى طلبا للمزيد من هواء المروحة ٠

ونطق خليل :

ـ لقد دوخني هذا الوضع ٠

وأجاب صلاح على الفور :

ـ لقد دوخ الجميع ولست وحدك من فعل بك هذا ٠

ثم نهضا من مكانيهما واندفعا باتجاه الشارع ، وتوقفا على الرصيف أمام المقهى مباشرة ٠

كان خليل يسند كتفه الى احد أعمدة الشـــــارع ، بينما وقف صلاح شابكا يديه خلف ظهره مفرجا ما بين ساقيه ، وكأنه جندي في حالة راحة يتأهب معها لسماع أوامر قائده بقنـاعة وعزم ٠ وظلا صامتين ، ونظراتهما تستقبل مقدمة التظاهرة ٠ وعرف فيها خليل وجوه عدة من رجالات الاحزاب التقدمية في البلد ٠ فلكز صلاحا قائلا :

ـ مظاهرة اخرى تساهم فيها كل الاحزاب ٠

وشعر صلاح بالزهو من تعليق صاحبه ، وقال :

ـ كلما تقاربت الاحزاب التقدمية من بعضها كلمـا امتلأ الناس بالتفاؤل ٠

ولم يستمع خليل لتعليق صاحبه ، اذ كانت حواسه كلها تبتهل لمقدم المظاهرة ٠

وعندما اقتربت اندمجا فيها · وازداد الهتاف، واحتدمت الاجساد الزاحفة ، وتأزز الشارع بمن فيه ·

وانتابت خليل نوبة من السعال بعد ان تقاذفت جسده الضامر الجموع · ولم تعد له طاقة على المواصلة · واستمر في مشيته صامتا ، رافعا يده المحتجة الى أعلى بين حين واخر ·

وفتح صلاح أزرار قميصه بحثا عن نسمة واحدة في هذا النهار القائظ · وبدأ يمسح وجهه بأطراف قميصه من العرق المتفصد فوقه · وكانت الجماهير ترفع واحدا منها على اكتافها بين الحين والاخر ليردد هتافا جديدا أو قصيدة ثائرة تزيد من تأجج الحقد في القلوب ·

واستمرت الاقدام توغل في الزحف بينما تنمرت الوجوه، وازداد توهج الاصرار في العيون · وسمع المتظاهرون أصوات الرصاص من الازقة الصغيرة المتفرعة من شارع الرشيد · ولم يعيروه أهمية أول الامر حتى أطل بعض رجال الشرطة ليكبحوا المظاهرة ويوقفوا زحفها العارم · وعندما عجزوا عن ذلك بدأوا يطلقون النار الى أعلى · ولكن المتظـــاهرين هجموا عليهم ، وتحاجزوا معهم · وتعالى الصراخ مختلطا بلعلعة الرصاص ·

وخارت قدما صلاح ارهاقا ورعبا · وكاد أن يسقط على وجهه ، فاستند الى كتف خليل مستنجدا به · فقال خليل :

ــ لا تخف ، انهم يطلقون رصاصهم في الأعالي لتفرقتنا فقط ·

وهب صلاح قائلا :

ـ لا تأمنهم · تذكر ما فعلوه بطلبة كلية التربية ·

ـ أجزم بأنهم أجبن من أن يعيدوا التجربة ·

وبدأ الرصاص بالازدياد · وتكاثر رجال الشرطة· فاعلن صلاح :

ـ لنحتمي اذن ، الم اقل لك ؟

ثم سحب صاحبه من يده ووقفا وراء أحد أعمدة الشارع لاهثين منقعين بالعرق الغزير · وتمتم خليل :

ـ أتحتمي من هؤلاء الأشبـاح ؟ لنستمر ، الى الجحيم كل حياتنا الماضية ·

وتجمع المتظاهرون من جـــديد · وواصـــلوا الزحف والهتاف ، وعندما قطعوا بضعة امتار استقبلتهم مجموعة من السيارات العسكرية كانت تترصدهم في ساحة « سميراميس » وعندما اقتربوا هجم عليهم عشرات من رجال الشرطة حاملين بأيديهم هراوات القمع · ودارت معركة حـامية ، كانت فيهـا الأيدي سلاح المتظاهرين · وازداد الضـــرب الموجع ، بينما أخذ المتظاهرون يتلاحمون تارة ويتفرقون أخـرى ، وعندمـا عجزوا عن المواصلة بدأوا بالتفـــرق محتمين بالأزقة القريبة والفنادق ·

وعرج خليل وصلاح في زقاق سينما الشعب ، وأحثـــا السير باتجاه شارع الجمهورية · وكان خليل يقزل في مشيته فقد هرست قدمه بحذاء أحد رجال الشرطة ·

وتوقفا عند بائع لبن وشربا كأسين من الشنين البارد ثم

واصلا المشي المذعور متلفتين بين فترة وأخـــرى مخـــافة أن يتعقبهما رجال الشرطة ٠

قال خليل :

ـ انني خائفة عليك فقط ، اذا أمسكوا بك سيفتحون لـك صحيفة أعمال في مديرية الأمن ٠

ـ وأنت ؟

ـ لدي واحدة منذ سنوات ٠

قال صلاح :

ـ أحداث حاسمة ٠

وعلق خليل :

ـ لم يعد للمنشورات ولا لمذكرات الاحتجاج دور بعد ٠ الوقت اليوم وقت مجابهة فقط ، ويجب أن نحيل كل مدينة الى ساحة قتال ٠

ـ أرأيت أعداد الشرطة التي جهزوها لقمع المظاهرة ؟

ـ ولكن كل هذا لن يفيدهم ٠

وتدفقت كلمات صلاح بأصرار :

ـ الى المزيد من أمثال هذا اليوم ٠

ـ انه يوم العار في التاريخ العـربي ، ويجب ان نـزيح عن وجوهنا غباره وصدأه ٠

وظلت خطواتهما تمخر في الزقاق ، وعنـدما خرجا الى شارع الجمهورية الفياه خاليا من المارة تقريبا ٠

واقترح خليل :

ـ لنذهب باتجاه شارع الكفاح علنا نجد سيارة تقلنا الى الشقة ٠

واستجاب صلاح لطلبه ٠ ودخلا زقاقـــا آخر يربط بين شارعي الجمهورية والكفاح ٠ وازداد صليـــل الألم في قـدم خليل ٠ وأخذ يقزل بمرارة واضعا يده على كتف صاحبه ٠

قال خليل :

ـ يجب أن نحمل أمتعتنا من الشقة ٠

وأجاب صلاح :

ـ حسنا ، يمكننا أن نفعل ذلك غدا صباحا ٠

ـ الى أين تحمل حقائبك أنت ؟

ـ الى فندق في شارع الامين يؤمه بعض أهل مدينتنا ٠ سأمكث فيه بعض الوقت بحثا عن التعيين ومـن ثم أسافر الى الكوت ٠

ـ حسنا ، سأخبر أخاك بذلك ٠

ورفع صلاح رأسه الى أعلى نـــاظرا الى السمـاء ، ثم تساءل :

ـ كم الساعة الآن ؟

ونظر خليل الى ساعته ثم أجاب :

ـ الواحدة تقريبا ٠

ثم أضاف متسائلا :

ـ أيهمك الوقت لهذا الحد ؟

وأجاب غامزا :

ـ ربما ٠

ثم عاد فقال :

ـ موعدي مع هدى في الرابعة ٠

ـ حسنا ، لنبحث عن مطعم قريب أولا فانا جائع ٠

ـ أقترح أن نذهب الى مطعم الطلبة في الوزيرية ٠

★★★

عندما وصل صلاح الى القسم الداخلي طلب من البواب أن ينادي له هدى عباس ٠ وخرجت اليه مسرعة ، وهي ترتدي فستانا صيفيا غامق الحمرة ، يكشف عن ذراعيها البضين ، بينما ينسدل شعرها الناعم على كتفيها ٠ واستقبلته بهيئة بشوشة رغم الذبول الحزين الذي يركن في وجهها ٠ مما جعله يسألها :

ـ ما بك ؟

ـ كنت أبكي ٠

واستغرب من تصرفها :

ـ ولماذا فعلت ذلك ؟

وتمتمت بانسحاق :

ـ خفت أن لا تأتي ٠

وهتف على عجل :

ـ أيتها المجنونة ٠

وتبدد بعض من ترددها أمام ابتسامته الصاحية ٠

ـ هيا بنا ٠ الوقت متأخر ، وسينما غرناطة تعرض فيلما فرنسيا رائعا ، حدثني عنه اسماعيل العماري بأعجاب ٠

وعاد يشرح بلهجة مسرعة وفرحة :

ـ قصته تدور حول حبيبين افترقا ذات يوم في ظـروف غامضة ٠ وحاول كل منهما البحث عن البديل ولكنهما عجزا ٠ وعندما التقيا بعد سنوات أخذ كل منهما يتأمل الآخر وكـــأنه يتعرف عليه لأول مرة ٠ ولم يجدا بدا من أن يتعانقا من جديد ٠

★★★

وعندما وصلا السينما وجدا أبوابهـــا مغلقة ، واعلان الفيلم مضاء بالنيون على واجهتها ٠ وهو يظهر البطل ممسكا بكتف حبيبته ، بينما ظهرت من ورائهما سماء مغبرة ٠

وعندما استفسرا عن سبب الاغلاق قال أحد الواقفين :

ـ كل السينمات مغلقة ، أنسيت ان اليوم هو الخامس من حزيران ؟ ثم انسحبا باتجاه ساحة التحرير ٠ وهو يسألها :

ـ ما رأيك بأحدى مقاهي شارع أبي نواس ؟

وقبلت اقتراحه وهي تقول :

ـ ما دام الحل الوحيد المقهى فقط ٠

قالت له بأناة :

ـ أتدري بأن حسين عاشور قد حـــدثني عن اعجابه بي واستعداده لأن يخطبني متى تخليت عني ؟

وفغر صلاح فاه استنكارا :

ـ أحقا ما تقولين ؟

وهزت رأسها بالايجاب ، ثم واصلت القول :

ـ ولكنني صرفته بلطف ٠

ـ لقد همس لي بشيء من هذا القبيل ذات يوم ، ولـكن خليل الراضي نهره بعنف ٠

ثم تساءل مغيرا الحديث :

ـ حدثينا عنك ؟

ـ سأسافر غدا ٠

وبعد أن أطلقت قرارها ٠ حمــلت عينيهــا الى وجهه، رسفح خضرة عينيه بساطا من الود والأمل أمامها حتى تهرول بكل طاقتها نحو رياض الفرح التي حلمت بها دوما ٠

واشعل سيكارة ثم اشرف عليها من بين دخانه ٠ بينمـا التقطت زجاجة المبردات وأخذت تسكب محتوياتها في الكأس٠

همست له :

ـ ليتك تعرف كم أحبك !

وتمتم بابتسام :

ـ أعرف ٠

ـ ولكنني خائفة منك ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأنك تتسرف بلا مبالاة قد تهدم فيها كل شيء دون أن يبدو عليك أي تأثر ؟

وعلق باستغراب :

ـ وكيف عرفت هذا ؟

ـ لست في مجال محاكمتك • ولكنك ملأتني بالأسى يـا صلاح •

واستقرت على شفتيه بسمة لم يعـرف كيف واتتهما • ولكنها كانت مناسبة لتهدئة المـــرارة التي بدأت تتسرب مـن صوتها الابيض •

ثم أمسك بيدها ، واحتفظ بها في يده بعض الوقت حتى هدأت ، وبانت لها هيئة مستسلمة كئيبـــة • ووجد أن عليـه اسماعها المزيد من الكلمات الدافئة ، ولكنه عجز عن ذلك •

زفرت ، ثم رفعت عينيها عن روض عينيـــه • وتركتهما تدوران حواليهما فبانتا له فاسدتين مفرغتين من الصدق ، ولا تناسبان هدوء وجهها الطفولي •

وقال لها :

ـ لنترك كل شيء ونبدأ من جديد • أليس هذا ما اتفقنـا عليه ؟

وهزت رأسها موافقة • ثم اخـــذت رشفة من زجاجـة المرطبات بينما قرب وجهه منها ليتأملها جيـــدا ، ويحفظ أدق ملامحها ، آثار النمش الخفيف عـــلى وجنتيهـــا ، والعينين

البراقتين العاريتين من الاهداب ، والشفتين المكتنزتين كثمـار الصيف ·

ونطقت محررة لسانها من صمته :

ـ كلما فكرت بمدى وحدتك وضيـاعك في هذه المدينة وددت لو أبقى بجانبك ، أطبخ لك الطعام ، وأغسل ثيابك ·

وأضافت بحماس بعد أن بلعت ريقها :

ـ انني أقول ما في قلبي يا صلاح ·· والله ·

وكان ضوء النهار على وشك الانحسار ، وما زالت منـه بقية على آسيجة الدور والفنـادق على الجـانب الآخر من الشارع ، وعلى رؤوس الأشجار التي تواجهه كذلك · وتعذر عليه أن يواصل قراءة ملامحها ، وهي تسكب كلماتها الشاكية في أذنيه ·

وحاول أن يستجمع في ذاكـرته خيوط علاقته معهـا · وقلّبها عدة مرات ، وتقاذفته أمواج الألم الثقيل التي سببتهـا له· ومر به وقت طويل وهو يقاومها لاستعادة هدوئه، والشفاء من هذا الدوار الذي يعصف به ، ويحيل كل تشبثاته الى جهود عابثة لا جدوى منها ·

واقتحمت عالمه بتساؤلها :

ـ ما رأيك بخالي ؟

ـ أتريدين الصدق ؟

ـ نعم ·

ـ انه رجل لا يؤتمن ، وربما يفسد كل شيء ·

وارتسمت على وجهها الصغير امارات الانشداه والحيرة، وهي تسأله :

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ اسألي اسماعيل العماري أيضا ٠

وحك رأسه وهو يتابع :

ـ في وجهه ثعلبية غريبة ٠

وقالت بهدوء :

ـ ليس كل هذا بمهم ٠

ـ وما هو المهم اذن ؟

ـ أن تكون مقتنعا فعلا بخطوبتي ٠

★★★

- ٢١ -

من أوراق صلاح كامل
(كانون الأول ١٩٧١)

سألت سميرة :

ـ اتأتين معي الى جمعية الفنانين ؟

قالت :

ـ والدتي مريضة ويجب ان أبقى بجانبها ٠

ثم أردفت :

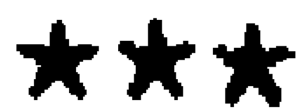
ـ اذهب وحدك اذا شئت ٠

وكانت قد خفضت صوتها حتى لا يستيقظ سامر الذي كانت تحمله بين ذراعيها متهيئة للخروج ٠

قلت :

ـ افتتاح اي معرض موعد للقاء الاصدقاء ٠

ثم زحفت نظراتي الى ساعتي لأتأكد من الوقت ٠



عندما دخلت قاعة العرض وجـــدتها مكتظة بالمدعويـن والفنانين المساهمين بالعرض • وبحثت عن وجوه الاصـدقاء فكان أول لقاء لي مع ابتسامة خالدة عمر الاخوية التي افتقدتها زمنـا •

سألتها عن أعمالها فأرشدتني الى ثـلاث لوحات علقت جوار بعضها ، تفحصتها بعض الوقت فسألتني :

ـ هه ، ما رأيك ؟

وشربت ملامح وجهها الصديق قبل أن أقول لها :

ـ أتريدين الصدق ؟ يخيل الي انك ما زلت في حـدودك المدرسية ، وان طـال بك الوقوف في هـذا الوضع ستكون النتيجة ليست في صالحك • الفنان يجب أن لا يكون وجـلا في فنه ، عليه أن يقتحم وينسف كل الموروثات البالية •

وهزت رأسها موافقة على تشخيصي ، ولكنها قالت :

ـ ما زالت في نفسي الرغبة المتانية للبحث والاستقصاء، لم استكملها خلال سنوات الكلية الاربع •

ـ ولكن حذار من أن تجعلي هذه الرغبـة المتانية كمـا تسمينها قيدا يحد من انطلاقتك الاسلوبية •

واستمرت في القول موضحة وجهة نظرها :

ـ ان الكثير مما اشاهده اليوم من أعمال فنية لا احس به ولا بأصالته ، انظر الى اللوحات المعلقة في هذه القـاعة على سبيل المثال ستجد أغلبها نسخا وتقليدا فقط •

قلت لها :

- في رايي ان هناك موجة من الفن المتوسط المستوى هي التي تشكل الأغلبية ، وكلما نظرت الى لوحة خيل اليك انك رايتها من قبل ، السبب هو ان بعض الرسامين يستسهلون نقل التجارب والاشكال ، والمجلات الفنية متوفرة والحمد لله ٠

- كيف الخلاص اذن ؟

- قد تسقط كل هذه الاعمال ، وهذه مسالة جد اعتيادية، ولكن وسط هذه الطحالب ينمو النبات الاصيل ٠

- وتجربة الافادة من الفن الاسلامي مثلا ؟

- كانت موضة ايضا ، كلها موضات اذا لم تكن نابعة من وعي عميق لدى الفنان٠ عشرات تصوروا الفن الاسلامي مجرد قباب ومنائر ٠ والزمن اين مضى منذ الواسطي وحتى اليوم؟ الفن الاسلامي عندما خرج من الجزيرة العربية لم يكن يحمل اي تقليد ، ولكن شخصيته وضحت وتبلورت بفضل العالم الآسيوي وعالم البحر الابيض المتوسط ، وهذا ما يؤكده كل من كتبوا عن التاريخ الاسلامي ٠ وعندما تبدا التعامل معه يجب أن لا يكون هذا التعامل نسخا فقط ٠

قالت :

- في الحقيقة ان موروث هذا البلد غني في الفن ٠

- بكل تاكيد ٠

وقطعت خالدة كلامي بضحكة صافية بش لها وجهها الاسمر الصغير ثم قالت :

- ما زلت تحب المناقشة ولم تتغير ابدا ؟

قلت لها :

ـ احس بان مسؤوليتي كبيرة ، ويجب ان نعيد الامور الى مسارها الحقيقي كلما افسدت ، هناك اخطاء كثيرة ٠

ثم سألتني :

ـ لم اقرأ اسمك في دليل المعرض ؟

اجبتها وأنا املأ صدري بنفس جديد من سيكارتي :

ـ أعد مفاجأة فنية هائلة ٠

ـ وما هي ؟

ـ سأقدم معرضا شخصيا مستمدا من ملحمة جلجامش ٠ وقد بدأت هذا المشروع بعد التخرج مباشرة ، وقد قطعت فيه شوطا بعيدا ٠

واخذت نفسا آخر من السيكارة وأنا اضيف :

ـ وافكر ان انقله الى عدة عواصم بعد عرضه في بغداد أولا ٠

وتجولت أنا وخالدة في المعرض ، وكانت الوحيدة من دفعتنا التي ساهمت فيه ٠ ومن ثم جلسنا في نادي الجمعية بعيدا عن زحمة الرواد ٠

سألتني :

ـ ما أخبار هدى ؟

اجبتها :

ـ لا اعرفها ٠

قالت بأسف :

ـ لقد انطبق عليها قولك ، وتحولت الى كرسي فيحديقة عامة كلما فرغ حل عليه جالس جديد ·

ثم تابعت :

ـ انها فتاة ضعيفة ، وظروفها الخاصة دقيقة جدا ·

قلت لها :

ـ ما جدوى حفر قبور الموتى ؟

ثم سالتني عن خليل الراضي ، وأجبتها :

ـ انه مدرس في البصرة ·

واعطيتها عنوانه ·

وسالتها عن ياسمين فوزي فقالت :

ـ كنت البارحة معها ·

واضافت :

ـ لكنها تكره الأجواء المزدحمة ، لذا لم تحضر افتتاح المعرض ·

ثم سالتني بخبث :

ـ هل غيّر فيك الزواج شيئا ؟

وأجبتها بحسم :

ـ أبدا ·· جنوننا وطموحنا ينمو بمعزل عنه ·

★★★

- ٢٢ -

أحاديث الليل
(حزيران ١٩٦٨)

بقي صلاح في بغداد وحيدا ، وليس له مــــلاذ فيها غير اسماعيل العماري برصانته المتشنجة ، وعبد الحميد الفلوجي بسخطه العاتي • وبينهما يتقلب بحثا عن موازنته الخاصة •

سأله عبد الحميد :

ـ ماذا تفعل هذه الأيام ؟

وكان صلاح قاعدا أمامه ، وقد وضع يديه على ركبتيه، ومد عنقه الى الأمام كالأسير :

ـ أرسم وانتظر التعيين •

وداعبه عبد الحميد بلطف :

ـ من حسن حظك انك قد وجدت ما توهم به نفسك •

وطرفت أجفانه وهو يعلن :

ـ أنت قاس بعض الشيء • الرسم يا عبد الحميد يعنى حياتي كلها ، وليس لي من مبرر غيره •

وهب عبد الحميد سائلا :

ـ والنضال ؟

ـ الرسم وسيلتي فيه ·

وعلق ساخرا على قوله :

ـ يا لها من وسيلة تافهة ·

ثم أضاف وهو يشير بسبابته :

ـ لو كنت كاتبا لكانت المسألة أهون ·

وردد صلاح :

ـ انني أجد قناعتي في الرسم ·

ـ لا أدري لماذا أهزأ بالرسم لهذا الحـد ، انه لا يثيرني مطلقا، والرسام الوحيد الذي أجد رسومه متجانسة معشخصه القلق هو فان كوخ ·

ـ حياته كانت حادة جدا·

ـ ولكنني أهتز أمام صفحة واحدة من رواية عظيمـة، أو بيت في قصيدة شعرية ·

ـ يبدو انك تفتقد الى صفة مهمة هي التأمل · اللوحة لا تقدم نفسها على عجل ومباشرة مثل الكلمة ، انها تأمل عميق، واكتشاف تدريجي ·

وزنخر عبد الحميد بمنخريه ثم ابتسم وقال :

ـ على اية حال اذا آمنت بالرسميوما فلن أؤمن بك أنت·

وازدهى وجه صلاح بابتسامة عريضة ، قال خلالها :

ـ أنت اكبر مغالط ، لو لم تكن مؤمنا بعبقريتي المنتظرة

لما اخترتني صديقا لك بعد ظهوري معك مرة واحدة فقط في برنامجك التلفزيوني الهزيل « فنانون واعدون » ؟

ـ لا تنسى أيها الدعي بانني مكتشفك ، وانني القادر على أن أمحو اسمك ايضا ٠

وضحكا بمرح من جديد ، وبعد ان ارتويا من الضحك الخلي ، اتكأ صلاح على مسند الكرسي ومد ساقيه أمامه ٠ وكان قبل هذا قد انتزع قدميه من الحذاء وتركهما مقنعتين بالجوارب فقط ٠ ثم أخذ يراقص أصابع قدميه بالتذاذ ٠ وظهرت عليه سعادة لم يعرفها وكان همومه قد صفيت كلها وأزيحت ، ولم تعد أمامه سدود أو عذابات ٠

أما عبد الحميد فكان يرتدي قميصا أبيض قصير الكمين ٠ وكان بياضه ناصعا جدا وكأنه دعاية عن أحد مساحيق الغسيل التي يقدمها التليفزيون على أنها الافضل والانصع بياضا بين المساحيق ٠ وامتدت ذراعاه العاريتان بساعديهما المشعرين قابضتين على الكأس بأناقة ٠ ولانت لهجة صلاح وهو يسر لصاحبه :

ـ سأبدأ مشروعا فنيا ضخما ٠

وأرهف عبد الحميد السمع اليه ، وهو يسأله :

ـ وما هو ؟

ـ سأختفي طيلة ساعات النهار في المتحف لأهيء رسوما عن ملحمة جلجامش ٠ ووجد عبد الحميد في كلامه ما يداعبه فيه فعلق بمرح :

ـ ولكنني اقترح عليك أن لا تخرج ، وأن تختفي في

المتحف نهائيا حتى تريحني منك ومن مشاريعك السخيفة هذه ٠ يا اخي ابحث عن احـــلام اخـــرى ٠٠ السفر ٠٠ الجنس ٠٠ السماء ٠

ثم قذف في فمه حبة باقلاء وزرطها مسرعا ٠ وعنـدما انتهى من ذلك زم شفتيه ٠ وأخذ ينظر في وجه صاحبه منتظرا أن يعلق على قوله ٠ وأدرك بانه غير راغب في مواصلة هـذا الحديث ٠ فالتقط الزجاجة وملأ كأسه من جديد ٠

كان الحر قد هجر الحديقة الواسعة فاسحا المجال أمام الأنسام الليلية الناعمة لتهب بطرب على الوجـــوه الثملة ٠ وعندما كرعا المزيد من الكؤوس اللافحة تحررت القلوب مـن أحزانها ، وأصبحت الضحكات أعلى وأتفه وهي تنطلق من بين الموائد ٠

قال عبد الحميد :

ـ بعد أيام سينقل هذا النـــادي الى بنايته الجديدة في المنصور ٠

وتساءل صلاح :

ـ وهل ستستمر على الذهاب اليه ؟

ـ نعم ٠ لا تنسى بأنني خـــريج كلية الحقـوق ، ولولا الاذاعة اللعينة لكنت اكبر محام في البلد ٠

ـ أيها الدعي لو لم تكن محاميا فاشلا لما ارتضيت ان تكون مذيعا ٠

ـ اننا نبحث عن المجال الأنسب ، هذا كل ما في الأمر٠

ثم مسح بيده على صدره الأشعر ، بينمـــا أعلن صلاح بلهجة أخرى :

ـ أتدري يا عبد الحميد بأنــك تكبحني كلما مضيت في عالم اسماعيل العماري ، وهو يكبحني أيضا كلما توغلت في عالمك ؟

وأراد أن يقاطعه ، ولكنه أوقفه بإيماءة من يده مواصـلا شرح ما قاله :

ـ اسماعيل وخليـــل أيضا مشـــدودان الى حياتهما المنهجة، والتزاماتهما التي تقرب من التزمت ٠ كل تحرك له حسابه تماما كالمسألة الرياضية ٠ يعرفان النتائجوالاحتمالات مقدما ٠ أما أنت فشيء آخر ، أوسع تجربة واكثر مغامرة ، أليس كذلك ؟

وتلقف عبد الحميد الحديث ليقول :

ـ الفرق بيني وبين صاحبك هو انه ما زال يعيش بعقلية طلبة ٠ ولو خرج الى الحياة لصفعته على عينيه ، تذكر هـذا الرأي ، وقل انني قلته ذات يوم ٠

ـ قد يكون قولك صحيحا الى حد ما ٠ ولكنه ليس طالبا فقط ، وانما شاب عركته الاحداث والمصاعب ، وواجه عشرات المتاعب ٠

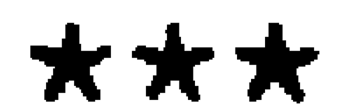
وقال عبد الحميد وهو يحرك يده :

ـ لا تبحث عن التفسيرات والمبررات فربما تكون مطبـا يفسد مسيرتك كلها ٠

وتمهل قليلا حتى استخرج منديله من جيبه ، مسح فمــه وتابع :

ــ ما زلت اكره أن أنصح أحدا ، ولكن لا بأس من أقــول وجهة نظري في الأشياء احيانا ٠

ثم اعتمد على مرفقيه في النهوض مستأذنا للذهاب الى المرافق الصحية ٠



- ٢٣ -

الزيارة
(حزيران ١٩٦٨)

دخل صلاح بناية المتحف · واندفع باتجاه قاعات العرض بهمة وحماس لأن يواصل المشاهدة والتخطيط ·

كان عائدا من الجريدة حيث مكث بعض الوقت في زيارة اسماعيل العماري ، وقد سلمه رسالتين احداهما من هدى عباس ، والاخرى من حسين عاشور · قراهما بتلهف · رسالة هدى طويلة ، فيها من السذاجة والطفولة اكثر مما فيها من الفهم العميق للعلاقة · كما انها شكت فيها من محاربة اهلها لها بعد ان حدثتهم عن علاقتها به ورغبتها في الزواج منه · حيث ربط الاهل بين هذه العلاقة ، وبين فسخ الخطوبة الصامت الذي نفذه خطيبها ·

وقد فرح من هذه الرسالة اذ جاءته كلمسة حنان نابضة بالصدق وسط عالمه الحائر · ولكن فرحته تبددت عندما قرأ رسالة حسين عاشور القصيرة وهو يخبره فيها : (انا مريض جدا · مريض الى درجة مرعبة · اسعل ، ولا اطيق المشي اكثر

من خمس دقائق · ولذا أتهيأ للمجيء الى بغداد لاعرض حالتي على الاطباء فيها ··· الخ·) · وتجسد شعوره بالالم له وهو في محنته هذه · فقد عاش معه سنوات الكلية · تاريخ عريض من الحزن والفرح · من التصفيق والنداء · ثم هـــا هو كل شيء ينحسر مخلفا المرض والاستنجاد ·

بغداد مرعبة · مطوقة بالصمت الفائر بمليون حكاية · والمقاهي والدروب والمحلات العامة الاخرى مزروعة بالمخبرين السريين الذين ينقلون بتقاريرهم مسيـــرة الاحتجـاج التي يشهرها الناس · وقد طوقوا مقهـــى « البرلمان » قبل يومين واعتقلوا بعضا من رواده الشبان · وقد أفلت صلاح بأعجوبة·

ودخل قاعة التماثيل الاشورية · وأخذ يدور فيهــــا · وقد زكم بالحيرة والقنوط · ولم يقو علـــى الوقوف الطويل فالتجأ الى قاعدة أحد التماثيل وتهالك فوقها · ولكن وجوه زملائه اقتحمت وحدته · وأحاطت بـــه كالتماثيل · ياسمين فوزي بكل بهائها وكبريائها · خالدة عمر بحجمها الصغير ، ولثغتها الودودة · خليل الراضي · حسين عاشور ·

ثم استل ورقة من دفتر الرسم · وكتب ردا لهدى على رسالتها : (تسألينني عن أخباري ، وكأنك تتوقعين ان يكون فيها جديد · من أين يأتي الجديد ؟ مدار تحركي محدد سلفا ، تماما مثل مدار الحصان المعصوب العينين الـــذي يسحب نواعير الماء · أتسمين جديدا ذهابي المنتظم الى المتحف لأقرأ وأرسم ؟ مرات أذهب الى الكلية والتقي ببعض الزملاء ··· الخ·) ·

وبعد ان انهى كتابة الرسالة زفر بارتياح · وتمتم مع نفسه : لقد تقبلت بنود المعاهدة ، ووقعتها بكامل وعيي · سأتزوج هدى وأحتجب في مدينة أخرى ليس فيها ذكر لأحد من اولئك الذين عرفوها قبلي · ومن حسن حظي انني لم أعرف أحدا منهم · وان عرفته ربما انقلبت الامور · ليذهب هذا العالم بسفالته · ولتخرس كل الافواه التي يتكدس شرفها في ثقوبها فقط ·

واحتدمت عيناه بالمقت وهو يواصل البوح مع نفسه : أنا أعرف بأن الاشياء من حولي رتبت خطأ · وها أنا صريع هذا البؤس الفطري الذي لا يدعني أنعم بساعة هدوء · لقد عرفت الخطأ في ترتيب الاشياء منذ ان بدأت أعي ما حولي · كنا يومذاك مجموعة من الحفاة يلفظنا كل صباح زقاق عامر بالوحل والوباء · يحمل كل منا قطعة خبز وحفنة من التمر الرخيص في كيس من الخيش المهلهل قاصدين مدرستنا · وجوهنا جافة · والكدمات تملأ اجسادنا الضامرة · وفي المدرسة كنا نراهم اولئك الناعمين الذين توردت خدودهم واكتسوا بثياب أنيقة · وتدلت خصلات شعرهم على جباههم · كانوا قانعين بصورة غريبة · وقد اتفقنا آنذاك على ان نذل ترفعهم · وندمي وجوههم · ونعفر شعرهم اللماع بالوحل · وبرزنا في الرياضة · لم يستطيعوا مقاومتنا بأجسادهم الناعمة كأجساد النساء · حتى في الدروس تخطيناهم أيضا · وتركناهم يلهثون وراءنا · ولكن بمرور الايام والتجارب أدركنا أن الخطأ باق ولن ينتهي عند هذه الحدود · وفي ليالي الشتاء الطويلة عندما تكون أجسادهم آمنة في أفرشتها الدافئة ، كنا

نجوب المدينة بتحد وارتجاف مسطرين على الجدران شعارات الاحتجاج ، وموزعين النشرات والبيانات المناهضة للسلطة. وقد اصطادوا قسما كبيرا منا . عاشوا في البيوت . المظاهرات والنداءات . الشعب والاشتراكية . يسقط الملك . حلف بغداد. نوري السعيد . وارتفعت راية تموز . الكذب مـــن جديد . الداء . الديدان تنخر . تفرقت الهتافات . تضاربت . تقاتلت. اقتاتت على الدم . ارتفعوا وصلاح في مكانه . هبطوا وصلاح ملقى في قاعة المتحف . يتذكر ويكتب رسائل حـــب تافهة الى فتاة ثانوية . تم مساء أمس عقد قران السيـــد صلاح كامل الحالم اكبر من حجمه . لبى نداء ربه صلاح كامــل الرسام الكبير . حبيب القلوب . الضمير . النكتة .

واستخرج سيكارة من جيبه وبدأ يدخن . ويغطس اكثر فأكثر في برك الحلم والتذكر . وهتف مع نفسه أيضا : هـــدى أيتها الساذجة اذهبي عني . اذهبي الى أي ذكر يطفيء جحيمك ويسكت عواءك . اغرقي في الزحام ولا تتشبثي بي .

ثم نهض من مكانه واتكأ على كتف أحد التماثيل . وبدأت عيناه جولتهما العمياء فـــي القاعة الخالية المبـــردة بأحدث الاساليب . ووضع رأسه على التمثال وهـــو يغمغم بصوت كالفحيح : الامتدادات تقلصت كلها . ركدت . تفسخت . وها أنا مسور بهذه المرأة المدانة . المجـــد والتسلط والطموح . امرأة كالاخريات . أفتح ساقيها والهث فوق صدرها بملل . ثم ارتدي ملابسي وأنام . نأكل التمن والمرق ، ونفكر بايجار البيت ، ومصروف الاولاد .

وارتفعت حنجرته وهي تردد : لن تكون جزءا من الخطأ الكبير . أيها الحالم يا صلاح ، اضرب رأسك في الجدار ، وافتح عينيك جيدا .

وسحب جسده الواقف . وعاد به الى قاعدة أحد التماثيل . ورماه فوقها كحمل عجز عن الاستمرار به .

وفتح الملحمة . وأخذ ينصت الى توسلات عشتار امام كبرياء جلجامش وغروره :

(تعال يا جلجامش . وكن عريسي الذي اخترت .
امنحني ثمرتك أتمتع بها .
كن أنت زوجي وأكون زوجك
سأعد لك مركبات من حجر اللازورد والذهب
وعجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز
وستربط لجرها شياطين الصاعقة بدلا من البغال الضخمة
وفي بيتنا ستجد شذى الارز يعبق فيه اذا ما دخلته
اذا ما دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة
سينحني لك الملوك والحكام والامراء
وسيقدمون لك الاتاوة من نتاج الجبل والسهل .)

وأخذ يقرأ هذا المقطع بصوت مسموع . ويترنم به بتلذذ . وبدأت قناته تلين أمام رحيقه الناعم كأيدي العاشقين. وشعر بالرثاء لهبوط عشتار وسقوطها في براثن هذا الشر المستديم الذي ظنته حبا . ووجد في كلماتها ما يدفعه للرسم

ويشحنه بهمة جديدة · وفتح دفتر التخطيطات وبدأ يرسم · واخذت اللحظات تتساقط كنثارة الثلج في نهار جبلي ·

وأثار منظره فضول سائحين أجنبيين اقتربا منه وتأملا رسوماته ثم انصرفا دون أن يعلقا بشيء ·

وفجأة داهمه الضجر ، فنهض حاملا اوراقه ، وغادر المتحف · وتسكع تحت لفح الشمس · وتوقف امام باعة صحف وواجهات مخازن · وشارات مرور · حتى وصل الى جسر الشهداء فعبره بخطوات طويلة متسارعة هربا من سيوف الشمس · وعرج على يساره في سوق المكتبات · ومر بآلاف الكتب المكدسة كالاسرى في زنزانات الاعدام · وعندما وصل الى مقهى « البرلمان » دخله باحثا عن وجه يعرفه فلم يجد أحدا · شرب شايه على عجل · وخرج سالكا الطريق باتجاه الباب الشرقي · وتذكر خال هدى في أوج تلاطمه فاستأجر سيارة نقلته اليه ·

وتوقف أمام دكانه مترددا بعض الوقت · اذ لاحظه منشغلا مع زبائنه · وعندما رأى وجه صلاح ابتسم بانفعال وحرج · وكأن وجوده أمامه ثانية صلافة لم يتوقعها · وبعد ان حياه رد الخال على تحيته بتمتمة من شفتيه · ثم قال مسرعا وكأنه يحسم أمرا معلقا بينهما :

ـ أخبرت أخاها في الموضوع ·

وتساءل صلاح :

ـ وماذا كان رده ؟

وحاول أن يراوغه بقوله :

ـ لم يقل شيئا معينا ٠ ولكنه موجود الآن في بغداد اذا أردت أن تراه ٠ سأدلك على الفندق الذي ينزل به ٠

وأحس صلاح بأنه يريد الابتعاد عـــن هـــذه المسألة فقال له :

ـ حسنا في أي فندق ؟

ـ في فندق الرشيد مقابل المقهى البرازيلي تماما ٠

★★★

صعد اسماعيل العماري وصلاح كامل سلالم الفندق ٠ وعندما وصلا الى ادارته سألا عن الاخ النزيل فقادهما خادم الفندق اليه ٠

وطرق اسماعيل باب الغرفة ففتحه شاب نحيف يرتدي بيجامة مقلمة بالاخضر الغامق ٠ وآثار النوم بادية على وجهه٠ وأخذ ينقل نظراته بين القادمين مستفهما عن سر مجيئهما ٠ وأطفأ اسماعيل شموع استفهامه هذا عندما قدم صاحبه اليه :

ـ صلاح كامل خريج كلية الفنون ٠

وأعقب ذلك بابتسامة متكلفة قال بعدها :

ـ وأنا اسماعيل العماري خريج كلية الفنون أيضا ٠ وربما أدركت اننا زميلان لأختك هدى ٠

وتفحص الاخ صلاح كامـل بنظرات مرتابة ٠ اكفهرت ملامحه بعدها ٠ وعمق الحقد الدفين فيها ٠

واستتب الصمت بعض الوقت ٠ أعقبه حديث عام بدأه اسماعيل العماري قبل أن يلج الى الموضوع ويعلن :

ـ أظنك خمنت لماذا جئنا اليك ؟

ثم اتكأ على السرير الحديدي المكشوط الطلاء قبل أن يضيف :

ـ صلاح يطلب يد هدى ٠

وأجاب الاخ بارتباك واضح وهو يوجه كلامه الى صلاح:

ـ المسألة ليست بهذه الصورة ٠ ثم ان هدى كانت مخطوبة لشخص آخر ، وقد فسخت الخطبة بسببك أنت ٠

ثم توقف عن الكلام ٠ وكأن لجاما أوصد فمه ٠ وتساءل صلاح باستغراب :

ـ بسببي أنا ؟

وأجاب الاخ بعد أن هز رأسه ايجابا :

ـ نعم ٠ لأنك كنت تلاحقها وتجبرها على أن تدرس معك٠

وقرف صلاح من جوابه هذا فما كان منه الا أن أعلن بحنق ظاهر :

ـ ان كنت تتصور هذا فأنت واهم٠

وارتفع صوت اسماعيل مضيفا :

ـ أتريد الحقيقة ؟ ان بينهما علاقة ٠

فقاطعه الاخ قائلا :

ـ أنا لا أؤمن بمثل هذه العلاقات ٠

وقال اسماعيل بلهجة نافذة الصبر :

ـ الامور لا تعالج هكذا ٠

وعاد الاخ الى القول :

ـ ربما خدعها ٠

وصاح صلاح محاولا تفنيد حججه :

ـ ليس في الامر خدعة ٠ وهي ليست طفلة حتى يخدعها أحـد ٠

ونطق الاخ متهربا من رد صلاح :

ـ عائلتي تكرهك ٠

وضحك صلاح في سره من هذا التصريح ٠ وأدرك انه واقع في شرك من السخف والتفاهة ٠ ولكنه استمر في مناقشته قائلا :

ـ ليس المجال مجال عتاب أو كره ٠ هناك اشكال ويجب أن نسلك أهدأ السبل لحله ٠

وأكد اسماعيل :

ـ هذا هو الصواب ٠

ومرت ثوان قليلة كان صلاح خلالهـــا ينظر الى فم الاخ منتظرا أن يبدي تعليقا نكيا ٠ ولكنه تمتم :

ـ أتريد الصراحة ؟

ـ نعم ٠

ـ ان اسمك كاللعنة بيننا ٠

وسأله اسماعيل :

ـ الى هذا الحد ؟

وهز رأسه مؤكدا :

ـ واكثر ٠

ورد صلاح بهدوء وهو غير مصدق لما يسمعه :

ـ هذه أمور تصحح ٠ ويجب أن نفهمها بتفتح ٠ اعتبرني أخا لك ٠ ألا يسعدك أن أكون ذلك ؟

وظل جامدا مرتعدا كالنفايات ٠ وأحس صلاح بأنه لن يستطيع المكوث أمام رائحة اعماقه الزنخة الفائحة من جثمانه الهزيل ٠

واسخط وضعه اسماعيل العماري فتساءل بضجر :

ـ وبعد ؟

وأعلن الاخ :

ـ هذا كل شيء ٠

ونهض اسماعيل العماري متمتما بتحية الوداع ٠ وتبعه صلاح كامل وهو يعلن بانفعال وقرف :

ـ مسألة قذرة أن أقف أمام الاشباه والنكرات ٠

وكبر قرفه وهو يضيف :

ـ أيكون هذا التافه خالا لأولادي ؟

وعادت الى صوت اسماعيل رصانته القديمة وهو يقول:

ـ يبدو ان الحكاية شائكة وانك أمـــام اناس مرضى ومسفلين ·

ثم اضاف وهو يمسح جبينه بأطراف أصابعه :

ـ ولكن المهم هدى ·

- ٢٤ -

من أوارق صلاح كامل
(كانون الأول ١٩٧١)

جلجامش ·· المتوحد ·· الصاخب ·· المفجوع ·· ها هو حي وماثل ·· انكيدو ·· عشتار ·· خميابا ·· البحث·· لقد امسكت به أخيرا ·· وطوقته في ثلاثين لوحة ذات احجام متساوية ، تنتظر الاطارات فقط حتى تصبح جاهزة للعرض ·

انا فرح الان لحد الهوس · فقد آن لي أن أهــــدأ قليلا وأستكين بعض الوقت ·· فهذه اللوحات هي مفتاح دخولي من الباب الواسع ·· الى عالم البقاء والمجد الذي يلامس اجفاني كحلم صيفي ·

وعندما قارنت لوحاتي بلوحات رسمها فنانون آخرون قبلي عن جلجامش ايضا ازدادت فرحتي ، واتسعت حتى اهتز لهــــا كل عصب في جسدي ، لقد تخطيتهم كثيرا ·· ومنحت الخطوط والالوان حرارة الفكر وعمق الادراك للملحمة وعالمها ·· على عكس ما صنعه الاخرون حيث لم يقدموا غيــــر قيم تزيينية باهتة ·

كانت سميرة تتمدد جواري في فراشنا الدافيء ، وقد خرج رأسانا من الغطاء ، وكنت استمع الى تنفسها الثقيل المجهد وهي تنوء بحمل طفلنا الثاني الذي احال بطنها الى كرة تمضي في الانتفاخ ، وترميها في عالم من النعاس والخمول ٠

قالت لي :

ـ سأذهب الى الطبيب غدا ٠

ثم قربت رأسها مني وأسندته الى كتفي ، فطوقتها بحنو وأنا اسألها :

ـ ما زال أمام موعد زيارتك الشهرية له بعض الوقت ؟

فأجابت :

ـ ان الورم يزداد في ساقيّ ٠

وقلت لها وأنا أمسك اذنها بمداعبة :

ـ لماذا لا تكفين عن تناول الزلاليات ؛

وحجبت ضكتها الناعمة في أذني وهي تهمس :

ـ سأمتنع ، أعدك ٠

ثم طوقتني بقـــــوة ، وزرعت شفتيها في أذني ٠ وهي تسألني :

ـ متى تنوي تقديم معرضك ؟

ـ خلال الشهرين القادمين ٠ قاعات العرض محجوزة ٠

ثم امسكت بيدي وحملتها لتضعها على بطنها ٠ ففرشت يدي على بطنها المكور ، وأخذت امسدها بحب ٠ فقالت :

ـ ألم تحس بالطفل ؟ انه يتحرك ويرفس !

وأغمغم بفرح :

ـ على عكس سامر ؟

ـ كان أهدأ عندما كان في بطني · وبعد خروجه انعكس الامر ·

ـ اراهنك انها وقاحة بنت ؟

ـ لا ، البنت عاقلة حتى في بطن امها ، أما انتم ···

ـ ما لنا نحن ؟

ـ الله يستر منكم ·

وقهقه صدرانا الراضيان بالضحك · ثم سالتها :

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ أمي ·

ـ لا تصدقي · البنت متحركة دوما ·

وتعود موجة الضحك الى صدورنا ثانية · ويقطعها صراخ سامر في غرفته المجاورة لغرفتنا · فاقول لها وانا اسحب جسدي من الفراش لاذهب اليه :

ـ اذا اصبحتم ثلاثة ساجن حتما ، وسافقد كل لحظة هدوء ·

وقابلني سؤالها :

ـ اتقول هذا من كل قلبك ؟

واظل صامتا فترة بحثا عن الرد المناسب · ثم اقول لها بضحك :

ـ لان وقتي سيضيع بينكم ٠

واضع قدمي العاريتين على السجادة ٠ واضيف :

ـ ولكن لا بأس ، سامنحكم كل وقتي من الان فصاعدا ٠ المهم انني قهرت جلجامش ، وأنجزت مشروع العمر ٠

وازداد صراخ سامر فقفزت خارجا اليه ، فالفيته واقفا وممسكا بحافة سريره العالية ٠ وخرجت لأملأ له كاسا من الماء ٠ وبعد ان شربه هدأ ، فأعدته الى مكانه ، وأعدت الغطاء الى جسده الصغير ٠ وظللت جالسا بقربه فترة حتى استسلم للرقاد ٠

وعندما عدت الى غرفة نومي وجدت سميرة غافية ٠ فخرجت صاعدا السلم باتجاه المكتبة ، ودارت عيناي بين رفوف كتبها ، وسحبت رواية من أمريكا اللاتينية اقتنيتها أخيرا ، واتخذت مكاني وراء المكتب وبدأت بالقراءة ٠

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل ٠ ولم اشعر بحاجة الى النوم فقد انفقت فترة ما بعد الظهر كلها فيه ٠ وتركت الكتاب جانبا ، وفتحت الراديو الكهربائي الكبير الذي يرتكن فوق منضدة واطئة ٠ وبدأت بادارة مؤشره ٠ كانت المحطات تسمع واضحة في مثل هذه الساعة حتى البعيدة منها ٠ واستمعت الى اغنية كنت اتذوقها يوما ، وبعد ان انتهت اقحمت المؤشر في صخب المحطات بحثا عن شيء لم أحدده ٠ نشرات اخبار أخيرة ٠ اغان تقطر بالحزن ٠ موسيقى ٠ الشرق الاوسط ٠ الحل السلمي ٠ جونار يارينغ ٠ العمل الفدائي ٠ وتذكرت خلال هذا البحث وجه حسين عاشور الذي زارني في

مكتبي صباح اليوم • ولاحظت التورد الذي بدا يزيح الصفرة المستديمة فيه • وتبددت من ملامحه تلك القتامة المعلولة ، وقد هنأته بهذا • فرد علي بفرح وسبابته تسبح في الهواء امامه :

ـ لانني واصلت اتباع توصيات الطبيب •

وسألته مداعبا :

ـ ماهي ؟

ـ لا شراب ، لا تدخين •

وكان يعدد باصابعه ، فقاطعته مضيفا :

ـ ولا حب ؟

وبدا عليه الاحراج امام تعليقي فنطق بهمس وهو يصطنع الضحك :

ـ لم ارتدع من تجربتها معك •

وتابع قبل ان اعلق على كلامه :

ـ وكانها كانت تنتظر مني ان اتركها حتى تقيم علاقـــة مع طالب اردني في قسم المسرح • ولم تمكث هذه العلاقة الا اياما ، اقامت بعدها علاقة اخرى مع زميل لهــــا في الصف وهكذا •

وهززت كتفي استنكارا لما تفعله ، وقلت عــــــارضا استنتاجي :

ـ انها حياتها ، وهي حرة في التصرف •

وطرح راسه قليلا الى الوراء ثم اجاب :

ـ على اية حال ربما تنقذها الوظيفة ·

واستمددت الحماس لمواصلة تشخيص حالتها من تعليقه هذا فقلت :

ـ لن ينقذها شيء اذا لم ترغب هي في انقاذ نفسها فعلا· اعرف واحدة كانت معلمة ثم انتهت راقصة في احـــد ملاهي الدرجة الثالثة تهز ردفيها امام السكارى كل ليلة ·

كان حديثا مسهبا ، كنت فيه متالما لا شامتا لما آلت اليه فتاة ظننت انني احببتها يوما ، ووقفت امام تافهين وتكرات اطلب يدها منهم لتكون زوجتي ·

ثم سالني :

ـ اظنك متالما مني ؟

واجبته بصداقة :

ـ ابدا ·

ثم قال وهو يعاود التاشير بسبابته :

ـ صدقني يا صلاح بانها انسانة غير سوية · تصور انها كانت ترمي لي بالطعم رغم علاقتك بها ، وكنت في وضع خاص بلغ فيه حرماني وفشلي اوجهما ، وقد قلت لها يوما : ان صلاحا يقف حائلا بيننا ·

واستانف كلامه بعد ان بلع ريقه :

ـ ولكنني اسقطت هذه الفكرة من حسابي · وعندمـــا غادرت المستشفى ذهبت الى الكلية بحثا عن اخبـار الاصدقاء

فوجدتها هناك · وعرفت منها ان علاقتكما قد انتهت ، وانك قد تزوجت · ثم سالتني ان كنت لا ازال معجبا بها · وكنت ضعيفا في ردي اذ أجبتها بالايجاب · وهكذا بدات علاقتنا ·

ثم تساءل وكأنه نسي شيئا :

ـ ولكن لماذا تركتها انت ؟

واحسست بصعوبة الرد فاجبته :

ـ كان من الواجب أن تسالني لماذا بقيت معها كل تلك الفترة ؟ فهو السؤال الانسب ·

ثم وجدته تشخيصا اخر اسعفتني به ذاكرتي فقلت :

ـ على اية حال لقد بدات علاقتنا بنكتة ورهان مع سعدون الصفار · وكان يجب أن تنتهي بنكتة ايضا ، اليس كذلك ؟

وهز راسه موافقا ثم أضاف وهو يشد على يدي خارجا :

ـ لقد عينت مدرسا في الكوت · وفي نيتي ان اطلب يد ابنة عمي فهي أنسب لي ·

وقبل أن يغادر عتبة الباب سالني :

ـ هل قرات قصة ياسمين فوزي ؟

ـ اية قصة ؟

ـ رجل في قفص من الوهم ؟

ـ لم اسمع بها ·

ـ بامكانك أن تشتريها من المكتبات ، وهي تتحدث عن

ايامنا في الكلية ، وقد اكتشفت فيها شيئا مهما ٠

وازداد فضولي وانا أسأله :

ـ وما هو ؟

ـ انها كانت تحبك ، وانها تسمي علاقتك بهدى قفصا من الوهم ، ومن هنا جاءت التسمية ٠

★★★

اطفأت الراديو ، وعدت الى القراءة ، ولكنني لم اجـــد الرغبة في مواصلتها ، اذ كانت أحداث الرواية بطيئة ومملة ٠ حملتها ورصفتها في مكانها علــــى الرف ، ثم هبطت السلم متجها الى غرفة نومي ، ورغبتي في قراءة رواية ياسمين كانت تعتلق ٠

- ٢٥ -

الألم الممض
(٢٩ حزيران ١٩٦٨)

الارهاب يحط على المدينة كجناحي نسر هائل · بينمـــا تواصل الاحزاب السرية اصدار نشراتها ، واطلاق احتجاجاتها وفي كل صباح تشاهد الجدران ملأى بالكتابات والشعـــارات المعادية للسلطة ·

وفي مقهى «البرلمان» كـان جسدا صـلاح وعبد الحميد يندسان بين الاجساد المثرثرة والمدخنة الاخرى · صلاح يقرأ جريدة حكومية تتحدث في افتتاحيتها عـــن المجلس التشريعي الذي طلعت به عبقرية الحاكمين في محاولة منهم لاسبـــاغ الديمقراطية والشرعية على حكمهم ، والتخفيف من حـــدة الرفض الذي يجابهون به من قبل الشعب · أمـــا عبد الحميد فيقلب صفحات مجلة فنية ملونة ·

القى صلاح بالصحيفة جانبا وهو يردد :

ـ لقد ضاعت الحقيقة في هذا البلد ·

ثم طفق يراقب الرواد بعينيه المتعبتين · وعلق عبـــد الحميد على قوله :

ـ الحقيقة واضحة يا صديقي ·

وتساءل صلاح بملل :

ـ كيف ؟ كيف ؟

وردد عبد الحميد بصوته الاذاعي المعروف :

ـ لن يستطيع الحاكمون رتق الفتق الكبير · أما المجلس التشريعي وغيره من الفذلكات فمجرد خيوط واهية · ويجـــب أن تعلم ان الجيش في حالة انـــذار قصوى منذ عدة أيـــام · وكبيرهم قد يوافق على اقالة الحكومة متى ما وجد البديل عن رئيسها ·

ثم وضع ساقا على ساق ، وتابع وكأنه يقرأ نشرة أخبار الصباح :

ـ واجتهادي الشخصي يقـــول ان البعثيين سيستلمون مقاليد الحكم واعادة ترتيب الامور بصورتها الصحيحة ، فهم القوة الوحيدة المهيأة لذلك ·

ودخل المقهى حسين عاشور ، وأخذ يتلفت باحثا عـــــن صاحبه · وعندما لمحه صلاح نهض مشيرا له بيده · وبعد ان صافحه قدمه الى عبد الحميد الفلوجي · ثم أفسح له المجـــال ليجلس جواره ·

وبعد ان قرأ سطور المرض في وجهه الذاوي سأله :

ـ متى جئت ؟

ـ البارحة • وقد سألت عنك اسماعيل العماري فأخبرني ان هذا المقهى ما زال مقرك •

وهب صلاح الى الاجابة :

ـ الى أين أذهب ؟ لا مكان أفضل من هذا المقهى • قريب من الفندق الذي أسكنه • ورخيص أيضا • كل الصحف والمجلات تقرأها بعشرة فلوس • هاك انظر ••

وأشار بيده الى الصحف المكدسة أمامه • وعندما انتهى من قوله التفت حسين الى عبد الحميد قائلا له :

ـ أنا من المعجبين بك • وخاصة عندما تقدم برنامج طلبات للمستمعين اذ تقدمه بطريقة مختلفة ، تعلق فيها على الاغاني وأسماء الطالبين •

وشعر عبد الحميد بالزهو من هذا الاطراء الذي اعتاد أن يسمعه في رسائل ومكالمات هاتفية وقال :

ـ شكرا ، وسأقدم أغنية باسمك تهديها الى صلاح كامل•

وعلق صلاح مبتسما :

ـ لا اريد أغانيك ، ولا اريد اشارة لاسمي في اذاعتك •

ـ ولكنك قبلت الظهور في التلفزيون ؟

ودافع صلاح عن عمله :

ـ كانت نزوة مراهقة ليس الا••

وبعد ان اطلق دفاعه • فتح يده • ونظر الى راحتها •

وكأنه قارىء كف يروم مباشرة مهمته · مسحها بذراع الاريكة، وهو يسر لحسين بأخاء :

ـ بقيت قلقا عليك منذ وصول رسالتك ·

ـ كان في نيتي المجيء منذ أيام · ولكن النقود منعتني · وقد مررت البارحة بأحد الاطباء · فحصني بدقة ثم طلب مني أخذ أشعة الى صدري · وقد فعلت ذلك ·

ونظر الى ساعته وأضاف متمما :

ـ بعد ساعة تقريبا يحين موعد استلامها ·

وبادره صلاح بالسؤال :

ـ أتريد أن أصطحبك ؟

ـ اذا لم تكن مشغولا ·

وقطع عبد الحميد حديثهما وهو يوجه سؤاله الى صلاح:

ـ أتريد أن نبقى معلبين في هذا المقهى ؟

ولم يرد صلاح على تساؤله مسرعا بل ترك عينيه تحومان بين وجوه الرواد المستكينة والتي حفظ ملامحها لكثرة رسمه لها وهي في تحنيطها الابدي على مقـــــاعد المقهى العثمانية الطراز · ثم أجاب :

ـ الى أين نذهب ؟

ـ الى المقهى البرازيلي فهو أنظف وأبرد ·

وشاكسه برده :

ـ أنت جالس في مقهى البرلمان وتتبطر عليه ؟ أتتصور

ضخامة هذا الاسم ؟ لقد كان مقرا للبرلمان ذات يوم • وكل مصير الشعب يتقرر فيه • وفي ذلك الجامع المقابل خطب معظم شعراء العراق محرضين ومنددين •• الرصافي والجواهري وغيرهما •

وهب عبد الحميد متأففا :

ـ انني ذاهب •

ـ الى اين ؟

ـ الى البيت وهذا افضل حل •

ثم حمل أوراقه ودسها تحت ابطه • وراح يحث الخطى وهو يميل في مشيته كالمخمور • وبعد ان غاب جسده بين العابرين التفت صلاح الى حسين وسأله :

ـ أتريد أن نذهب ؟

وهز حسين رأسه بالايجاب •

وخرجا ليمخرا بين الصفوف المتدفقة في شارع الرشيد • وتمتم حسين بأسى كلمات كان يود أن لا يقولها لصاحبه :

ـ خليل الراضي معتقل •

وتضعضع صوت صلاح الواثق من هول النبأ • وتساءل باختناق :

ـ ماذا قلت ؟

ـ اعتقل بعد عودته الى الكوت بأيام •

ـ ولماذا لم تخبرني في رسالتك ؟

ـ الرسائل الخارجة من المدينة تفتح جميعها من قبل الرقابة العسكرية ٠

★★★

بعد ان استلم حسين صورة الأشعة دلف الى غرفة الطبيب ٠ وبقي صلاح ينتظره في الخارج ٠

وعندما خرج استقبله صلاح متسائلا :

ـ هه ، ما الذي قاله لك ؟

وابتسم بنكد وهو يرد :

ـ صدري مصاب ٠

وارتعد صلاح من رد صاحبه ٠ وحاول أن يواسيه بكلمة ٠ ولكنه استوقفه بيده قائلا :

ـ لا داعي لتسطير كلمات المواساة ٠ أنا مريض ٠ هذه حقيقة ثابتة أعرفها قبل ان يفحصني الطبيب ٠ السعال والدم الذي أبصقه ٠ وفحيح صدري الشبيه بفحيح أفعى الصحراء ، كلها دلائل على مرضي ٠

ثم التقطت يده منديله من جيب بنطاله الخلفي ٠ وأخذت تمسح به وجهه ٠ بينما راحت خطواته القصيرة تلهث فوق الشارع الصيفي ٠ وكانت سخونة الجو المصحوبة بغبار جاف تهري اهاب الوجه ٠

سأله صلاح

ـ وماذا ستفعل ؟

ـ سأدخل المستشفى ٠

ثم أضاف :

ـ يجب أن أشفى ، لا اريد ان أموت مبكرا يا صلاح ٠

★★★

- ٣٦ -

خيبة المسعى

(٤ تموز ١٩٦٨)

حل صلاح مبكرا في مكتبة المتحف بمعية أوراقه وملاحظاته ليخطط رسوما جديدة في مشروعه ·

لقد رسم اكثر من مائة تخطيط ، ولكنه لم يتوصل الى نتيجة · ولذا عاد الى قراءة الملحمة ، والتشبع بها · وفي كل قراءة كان يكتشف ابعادا جديدة مر بها عابرا من قبل · وتلح عليه رغبته في أن يمنح هذا الكائن الأسطوري سمات معاصرة، محاذرا أن لا يكون عمله مجرد تسجيل فوتوغرافي سريع لعالم الملحمة وابعادها ·

وأثاره صلف جلجامش وغروره الطائش وهو يرد على عشتار قائلا :

(أي خير سأناله لو اخذتك زوجة ؟
انت ، ما انت الا الموقد الذي تخمد ناره في البرد
انت كالباب الخلفي لا يحفظ من ريح ولا عاصفة
انت قصر يتحطم في داخله الابطال ·

انت فيل يمزق رحله

انت قير يلوث من يحمله

انت قربة تبلل حاملها

انت حجر مرمر ينهار جداره) ٠

قائمة طويلة من السباب أطلقها في وجهها ٠ كانت أحلامه اكبر منها ، وأوسع من مضاجعة انثى شهية ٠٠ الحياة ٠٠ الموت ٠٠ الخلود ٠٠٠ الانتصار الكبير ٠٠ شرب اكسير الحياة والبقاء ٠٠ ولكن أفياء أوروك تظل بشوق لأن تضم طلتك الالهية المتألقة ٠

أحداث حية ونابضة رغم الزمن والمحن العصيبة ٠ مترجمها يتحدث عن تاريخ كتابتها فيرجعه الى اربعة آلاف سنة ، وربما الى حقب أخرى قبلها ٠

واستعاد قراءة هذه الأبيات ، وابتدأ محاولته في تحويل هذا العالم الشعري الموسق الى خطوط والوان ٠ وسرت حيوية غير متوقعة في عروقه وهو يدخن ويرسم ٠

وجاءته وجوه أصحابه في صف طويل تقدم أوراق اعتمادها الى عالمه المعزول ٠ خليل الراضي الهادىء كالأطلال المليئة بالسحر والصلاة ٠ ياسمين فوزي المسافرة على أجنحة البطر والخيال ٠٠ شعرها العسلي المنسكب كالشلال ٠ والانحناءة الانثوية في كتفيها ٠٠ هدى ٠٠ سعدون ٠٠ حسين ٠٠ وانحنى لهم موافقا لأن يدلفوا بصخبهم القديم حتى يسمعوه أصواتهم الفقيدة ٠

كان الخرس يرين على المكان · والقاعة هادئة لا يكشط هدوءها غير سعال الفراش المتقطع ·· الجو مكيف ، ورأسه لم يعان من صداع · اذ ترك جوفه عاريا من الخمرة في الليلة الماضية · ونام مبكرا على سطح الفندق بعد أن حمل معه الى فراشه راديو ترانزستور كان ملكا لخليل الراضي وتركه لـه بعد سفره · واستمع بوله الى أغنية تركية جرحته كالسكاكين · وتقاذفته أمواجها كجسد من الفلين في محيط صاخب · وهتف للأغنية من قلبه : يا أغنية العمر الحزينة استمري فلن ينقذني شيء ··· قبلي ارتفعت صرخات المـــلايين ··· يسقط ··· يعيش ··· وسقط من سقط ، وعاش من عاش ·· مئات المشانق نصبت ··· ومئات القلوب كلفت ·· غاليلو ··· سبارتاكوس ··· جيفارا ··· ممالك ··· امبراطوريات ··· جماهير ·· الأجساد المندسة في صخب المظاهرات ··· هراوات الشرطة ·· لعلعة الرصاص ··· التعب واليأس ·

ثم تنشق برودة الهواء · وتفرس في رسوماته مسرعا · أطبق الدفتر وحمل نظراته الى ساعته فوجدهـــا تشير الى العاشرة ، وجاءته فكرة السفر الى بعقوبـــة ، مـــدينة هدى وسعدون ، والحت عليه الفكرة فلم يجـــد كبيـــر بأس في أن ينفذها ·

★★★

السيارة محتشكة بالجنود والقـــرويين ، وبينهم شابة تومض عيناها بحياء شرقي لذيذ ، وهي تـلف عباءتها حـول صدرها ، ولم يبق ظاهرا منها غير هذه الدعـــوة الشبقة في نظراتها الرامية ·

كان الطريق الى بعقوبة قصيرا لا يستغرق زمنا طويلا. وعندما وصلت السيارة الى المدينة غادرهـا بعد أن ترك تحت قدميه خمسة من أعقاب السكائر المحترقة .

الشمس تنزل لفحها الشديد على البنايـات والأجسـاد وأشجار البرتقال التي عرفت بها هذه المدينة . دس يـده في جيبه . وأخذ يخطو دون أن يحدد له وجهـة . وعنـدما مـل التطواف دلف في مقهى صغير يقع قريبا من نهر « خريسـان » ثم خلع حذاءه وأسند جذعه الى الحائط بعد أن مد ساقيه .

المقهى فارغ من الرواد عدا اعرابيين يلعبان الدومينو. وثلاثة عمال يتناولون أسياخ اللحم المشوي والبصل بنهـم . ويأتيه صوت مضغهم للطعام فيوقد رغبته في أن يملأ جـوفه بطعام ما .

وتمازجت أصوات الرواد ، ولكن ضوضاءها كانت خفيفة لا تجرح خلوته في هذا المكان القصي . وبعد أن رشف قـدح الشاي نهض مغادرا . وعاد جسده ليدور في شوارع المدينة من جديد والتي كانت تبدو كالمهجورة في هذا الجو القائظ . وأحس بالارهاق يطأه فبدأ السؤال عن بيت سعدون الصفار . ولم يجد صعوبة في الاهتداء اليه . وجاء لقاؤهما سـاخنا وحميما ، وكأنهما افترقا أعواما طويلة . وأعقبت ذلك مراجعة للأخبار والاحوال .

وغرق صلاح في شمائل صاحبه العذبة . وطفح قلبـه بالفرح والصداقة وهو يقول له :

ـ ها قد جئتك .

وخاوص سعدون عينيه وهو يردد غامزا :

ـ جئت من أجلي ؟ أم من أجل أحباب القلب ؟

وامتعض صلاح وهو يتذكر حالة خليل الراضي وحسين عاشور · وأراد أن يبوح لسعدون بها · ولكنه أجل ذلك حتى انتهيا من تناول طعام الغداء حيث قال :

ـ لدي خبر مؤلم ·

ورفع سعدون وجهه مستفهما :

ـ سقطنا في الأمتحان ؟

ـ لا · خليل معتقل ، وحسين مسلول ·

وأصاب الذهول ملامح سعدون بعض الوقت · ثم عـاد ليتساءل بنكد :

ـ ماذا قلت ؟

ـ هذا هو الواقع ·

ـ وكيف عرفت ؟

ـ كان حسين في بغداد · وأظنه سيدخل المستشفى ·

وتمتم سعدون من بين أسنانه :

ـ يا للمصيبة !

★★★

وأمضى صلاح فترة ما بعد الظهر نائما ممتلئا بالأمان البيتي الذي افتقده زمنا · وعندما بلغت السـاعة السابعة مساء قال سعدون :

ـ ليس لدينا مكان نستضيفك فيه غير نادي الموظفين ·
انه واسع ومعزول في غربي المدينة ·

وأجاب صلاح بابتسام :

ـ أنا في عهدتك هذه الليلة ·

★★★

حديقة النادي واسعة ، وقد أطفئت معظم أضويتها ·
واحتاجا بعض الوقت حتى ألفت عيونهما الظلام ، وبدأت ترى
الأشياء وتشخصها ·

كانت الموائد موزعة في فنائها ومتباعدة عن بعضها ·
أجال سعدون نظراته وعندما استقرت على مائدة فارغة· أشار
بيده قائلا :

ـ لنجلس هناك ·

وعندما جلسا أضاف :

ـ الحمد لله اننا لقينا مكانا ·

وتساءل صلاح مداعبا :

ـ يبدو ان ناديكم يملك شعبية واسعة ؟

وأطلق سعدون ضحكته العتيدة ليقول بعدها :

ـ لا شعبية ولا جماهيرية · ولكنه جديد ولكل جديد لذته
كما يقال في الأمثال · وعندما تراه بعد ساعة تتصور ان المدينة
كلها تسكر فيه ·

وأمر سعدون بأحضار زجاجة عرق كاملة مع تشكيلة من جميع أنواع المازة المتوفرة ، مما حدا بصلاح لأن يهتف :

ـ ما هذا الكرم ؟

وأجاب سعدون بأريحية :

ـ تستأهل ذبيحة ، ولكن لعن الله الافلاس ٠

وتمتم صلاح شاكرا :

ـ ان فرحتك بقدومي تكفي وحدها ٠

ـ لقد نزلت علي من السماء ٠

وبعد أن ثمل سعدون مال الى الصمت والتـأفف ٠ ولم تظهر على محياه رغبة في الكلام ٠ وكان يشد جذعه الى أعلى بين فترة وأخرى وكأنه يود مقارعة عدو مجهول ٠

القى على صلاح نظرة قال بعدها :

ـ لو لم تنقل لي نبأ حسين وخليل لكان افضل ٠

فأجاب صلاح بمواساة :

ـ دع الألم جانبا ٠ خليل الراضي يعرف جيدا انه ذاهب الى مدينته ليسجن ٠ أما حسين فاصابته في أولها وسيشفى حتمـا ٠

ورده بحزن لاسع وهو يهز رأسه :

ـ أواه يا صلاح ، هذا كلام ٠

ثم استمر في السكر ٠ وبعد فترة قال :

ـ انني أعيش عصري الذهبي ٠

ـ كيف ؟

ـ ساجدة أراها كل يوم ٠ وكالعادة أدق على الجدار فتخرج وتبدأ الاحاديث والقبل ٠ أهلي يتساءلون لماذا لا تغادر غرفتك وتخرج لترى الدنيا ٠ ولكنني أتعذر بالمطالعة والرسم٠

ثم أضاف وكأنه تذكر شيئا :

ـ أما هدى فلم أرها الا مرة واحدة ٠

واستغرق صلاح في مراقبة عمياء قبل أن يجيبه :

ـ ولكنها تكتب لي أحيانا ٠

ـ سأدلك على بيتها غدا ٠

ورفع صوته بحماس أعلى وهو يعلن :

ـ سأعرفك بالأعمى الذي كانت تحبه فهو ياتي الى هنا كل ليلة تقريبا ٠ وأحس صلاح بالتحريض المقصود في كلام صاحبه ٠ ولكنه تساءل مداعبا :

ـ أعدت الى مشاكساتك ؟

ورد سعدون على الفور :

ـ من أجل ارضاء فضول قد ينتابك يوما ٠

وأضاف مؤكدا :

ـ وسأعرفك على خطيبها السابق أيضا ٠ الم اقل لك انني تاريخها المتجول ؟ سعدون الصفار يعرف كل شيء ، أفهمت ؟

واذعن صلاح لرغبة صاحبه الثمل وهو يجيب :

ـ كما شئت · ولكن يجب أن تتأكـد أولا بأنني جئت الى بعقوبة من أجلك أنت فقط ·

وبش وجه سعدون الوديع وهو يهمس :

ـ شكرا ، أنا أعرف هذا ·

ثم استمر في القول بعد أن أخذ حسوة جديدة من كأسه:

ـ قبل أيام قرأت مثلا عربيا في احدى المجلات ·

وصفع بيده على جبينه وهو يواصل القول :

ـ لا أذكر اسمها الآن ·

ـ المهم ؟

ـ انني توقفت عند هذا المثل وسجلته على ورقة وحفظته من أجلك رغم كرهي لمثل هذه السفاسف والترهات التي كنتـم تصدعون بها رأسي أيام الكلية ·

ـ ارحمنا رحمك الله ؟

ـ المثل يقول : المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد ·

ثم أضاف قائلا بتمحيص ودقة لم يعرف فيه :

ـ وها أنا أردده أمامك فهو ينطبق على حالتك مع هدى·

وبعد أن انهى كلماته بدأت نظراته تتحرى عن الصدى في وجهه · ولكن الظلمة لم تسمح له بأن يعرف ذلك · وبعد هنيهة أنصت لصلاح وهو يردد باكتئاب :

ـ هذا المثل وغيره ضمادات نداوي بهـا جراحنا · ان

الطّين

في تأمله ومراقبته بحثا عن السر الذي جعلها تهواه يوما ·

وبعد ان ثمل الأعمى ساله سعدون :

ــ وهدى ما أخبارها ؟

ورفع رأسه مسرعا كاللديغ ثم ردد :

ــ انها وهم قديم ·

ثم أضاف معللا نفسه :

ــ ولكن لا بد من الأوهام كي تلون حياتنا بالمعنى ·

وارتفع صوت صلاح آنذاك متسائلا :

ــ وهي ما موقفها منك ؟

ردد بحسرة :

ــ لا اعرف · ولكنها خطبت ثم فسخت خطوبتها · ويبدو لي أنها أحبت آخر ·

هكذا هي ، لن تشفى من نزواتها وتظل أسيرة فرجها لا عقلها دوما ·

وارتعد صلاح اذ سمعه يتكلم بهـــذه اللهجة عن المرأة التي ينوي الاقتران بها ، لتكون زوجته وأم أولاده · والتي ترك بغداد وجاء ملاحقا ظلها في هذه المدينة ·

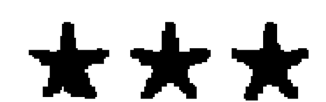
وأمسكت أصابعه المصفرة الأطراف بسيكـارته واخذت تحملها الى فمه بانفعال ·

وفي صباح اليوم التالي قرر صلاح العودة الى بغـداد مبكرا مما دعا سعدون لأن يسأله مستغربا :

ـ ألا تريد أن ترى هدى ؟

ورد على الفور :

ـ ليس هذا مهما · لقد جئت من أجـــل أن أراك انت · فلماذا لا تصدقني ؟



- ٢٧ -

الشجن الذي قد ينتهي
(٥ تموز ١٩٦٨)

بدأ رواد نادي المحامين بالمجيء · وكان صلاح يقبع وحيدا مغطى باستكانة متأملة ، راميا في جوفه أقداح العرق على عجل · ومن وجهه تطل على الأشياء عينان محمومتان ، تطوفان في المكان وكأنهما تستكشفانه لأول مرة ·

وعربد بخفوت :

ـ لا بد وأن نصل الى خاتمة حتى نبدأ فصلا آخر، أليس كذلك يا سعدون ؟ يا خليل ؟ يا حسين ؟ يا اسماعيل ؟ لقد انتهت الكذبة ، هيا تعالوا ، تجمعوا ، لنضحك ، لنسكر ، لنوزع النشرات السرية ، لنضاجع العاهرات ، لنتظاهر ، هيا تعالوا ، ما لكم لا تسرعون ؟

وجالت نظراته بين النوافذ المغلقة البعيدة · وقد تلألأ نور المصابيح من خلف زجاجها · وود لو تسلقها وهشم الزجاج · ودخل كاللص المحترف على هذه الفعلة تضع رأسه في متاعب أخرى تبعده عن حالته ·

وعاد صوته المعربد ليردد بفحيح :

ـ لم تعودي هدى كما تعلن حروف اسمك الثلاثة · بل انت ضلال ومتاهة وعقوبة وحكاية رخيصة تروى على موائد السكارى ·· يجب ان أركلك على قفاك وأعود الى حضني الذي هبطت منه فتعثرت في الحفر والاوحال ·

ثم اشار بيده للنادل وأخبره :

ـ اذا سأل عني عبد الحميد الفلوجي فاخبره انني هنا ·

ـ حاضر ·

ثم التقط قطعة الثلج ورماها في قدحه · وبعد ان هيأ كأسه تجرع حسوة منها ثم أطلق ضحكة مبتسرة مكظومة ، تردد بعدها صوته الخفيض ليقارع الخيبة والحزن :

ـ اشرب ايها القرد ··

قرد السياسة والحب ،
ثم تسلق أغصان شجرتك ·
استر عورتك
امش على يديك كالبهلوان ·
انحدر بلا ضجيج ولا دوي ·
الكأس تتبعها أخرى ···
والعيد يحلو للغربان ·
تخبطي يا أقدامي العمياء ·
سقط العرش ·
ووضعوا التاج على رأس قرد ·

لعبة مسلية أخرى

أضيفت لمنهاج هذا السيرك ·

وجوههم بيضاء ··

وخصل شعرهم لماعة ·

غلبناهم ···

أرجلهم ناعمة كأرجل النساء

الخبز والتمر في جيوبنا ·

الاصرار ضوء العيون

والرأس ترهقه أطنان الاحلام ·

هذه الأجساد سأمدها في طريقي ·

صلاح يصعد ··

لن تعرفوه بعد ·

واخذت الخمرة تدور في معدته · واستسلم لهذا الهذيان الخرف ، ومعه انصهرت الحمم ، وانفجرت الألغام · وكسرع المزيد من ميراث الانكسار ·

وانتابته نوبة دوار وغثيـــان شديـــدين فاسرع صوب المغاسل · وضع اصبعه في فمه فانسكب القيء ســاخنا لــه مرارة الدفلى ·

وبعد أن افرغ ما في جوفه وضع راســـه تحت صنبور الماء ، وشطف وجهه ويديه · وعاد مترنحا الى مكانه فوجـد عبد الحميد هناك ·

ــ تأخرت ؟

ـ قرأت نشرة أخبار العاشرة ٠

وجلس صلاح وهو يردد :

ـ ايها المذيع القذر ٠٠ يا صوت اللصوص ٠

ـ لست اقذر منك على اية حال ٠

ثم زفر صلاح من جوفه وهو يردد بحزن :

ـ كنت اتقيا ٠ لقد بدأت الخمرة تهزمني ٠

ـ كم شربت ؟

ـ اكثر من نصف زجاجة ٠

ـ تقدم مطرد !

ورفع صلاح راسه الى اعلى متاملا نجـــوم السماء ٠ فوضع على شفتيه ابتسامة ساخرة وتمتم وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ايه ايها المدعي القديم ٠

وارتفعت يده ملوحة بينما أرخى عبد الحميد عقدة رباطه وصوته ينادي النادل :

ـ هات ربع عرق ٠

ـ وزجاجة بيرة لي ٠

ثم نظر الى صاحبه وكأنه يتفرس في ملامحه وقال :

ـ انني على استعداد لأن أبدأ معك ما دمت قـد أفرغت جوفي قبل قليل ٠ ولكن هذه المرة ساكون اكثـر ترفا فأشرب البيرة ٠

واستمد عبد الحميد الفرح من تأمل صاحبه ٠ ثم قال وهو يرفع عينيه عنه :

ـ حسنا يا شيخ المدعين ٠

★★★

تفحص صلاح وجه صاحبــــه ٠ وانتبه الــــى سمة لم يشخصها فيه من قبل ٠ وتتمثل فــــي البسمة الخاصة التي يحملها دائما وفي كل الظروف والحالات ٠ وعلى الرغم من مضي الزمن وتمكنه من السطو على ملامحه ، فانه لم يفلح في النيل منها ٠

ـ عبد الحميد ٠

ورفع رأسه مجيبا :

ـ نعم ٠

وعاد صوت صلاح المفعم بالشجن ليتساءل :

ـ الى اين نريد الوصول ؟

وردد عبد الحميد بدهشة :

ـ ما هذا الخرف ؟

واتشح وجهه بأمارة مؤثرة وهو يلح في السؤال :

ـ أجبني أرجوك ٠

وانفلت صوت عبد الحميد الذي داخله الملل ليقول بشيء من الجدية :

ـ هذه مسألة تتوقف على عوامل شخصية بحتة ٠

وارتفعت يد صلاح الى أعلى بعصبية وهــــو يكز على اسنانه ، نافخا الهواء المختنق في صدره ٠ ثم أرخاها قليلا ٠ وطرحها على المنضدة ثانية ٠ وأجاب كمن يسر بشيء هام :

ـ لم أشعر بحيرة في حياتي مثل حيرتي اليوم ٠ لا أدري

ماذا افعل ؟ هل اعود الى الكوت لأقبــــر هناك بين تلامذتها ومدرسيها ؟ ام هل أبقى هنا ؟ والى اية غاية ؟ هل أظل مشدودا الى علاقة بامرأة مدانة ؟ ام اهرب منها ؟ هل ؟ هل ؟

ثم أخذ ينقر بسبابته على سطح المائدة بعصبية بعد أن اطلق تساؤلاته مركزا النظر في ملامح صاحبه التي خضعت لحيرة مفاجئة وتمتم بسخرية :

ـ ألا تعتقد بأن المغني أفضل من المذيع ؟

ثم انطلق ضاحكا بعد ذلك كالخلــي ٠ وأضاف بعد أن ارتوى من قهقهته :

ـ لو كنت مغنيا لغنيت لي الآن وملأتني بالسرور ، بدلا من ان تحاصرني بهذه الاسئلة المصدعة ٠

وبعد دقائق من السكوت التفت عبد الحميد الى صاحبه وسأله بحرص :

ـ ما بك اليوم ؟

ـ متألم ٠

ـ كيف ؟

ـ اكتشفت انني كنت قردا ، وقــد أديت رقصات كثيرة امام جمهور رديء ٠

ـ لم توضح لي بعد !

ـ حالة لها علاقة بقطع علاقتي مع هدى ٠

ـ وهل قطعتها فعلا ؟

ـ نعم ٠ البارحة قررت ذلك وكنـــت في بعقوبة ٠ وقد اصدرت القرار هناك ٠ ولكنني لم أفهمه لسعدون الصفار علنا ٠

ثم انتبه صلاح الى ثرثرته المفرطة ، وحاول ان يتماسك وهو يغير لهجته فجأة ويعلن :

ــ والآن لنبحث عن موضوع آخر ٠

وأضاف متسائلا :

ــ وأنت يا عبد الحميد ، ماذا عنك ؟

واستجاب عبـــد الحميد لاقتراح صاحبه ٠ وأراد ان يجاريه في حالته الدقيقة هذه فقال :

ــ ما زلت ابحث عن الخلاص بعيدا ٠

ــ ولكن أليس هناك أمل ما ؟

وتفوه عبد الحميد بكلمات سباب ساخطة ٠ وتحدث عن بعض الاحداث السياسية المرتقبة ، وعن سفر رئيس الحكومة الى طهران ٠ وكان صلاح يصغي الـــى حديثه باهتمام حتى اختتم حديثه الطويل بقوله :

ــ لقد ضعفت هذه الحكومة وأفلست ، حتى انني استطيع اسقاطها برواد بار واحد فقط من بارات بغداد ٠

وفسر ما قاله نكتة ضحك لها باقتضاب ، ثم أضاف متمما تعليقه هذا :

ــ والاسلحة قناني العرق والبيرة الفارغة ٠

وبعد ان انهى صلاح زجاجته الاولى طلب الثانية وهو يقول :

ــ كم انا بحاجة الى فترة نقاهة !

ــ وأين تريد أن تمضيها ؟

ــ في الكوت ٠ سأسافر غدا الى اهلي ٠ لا اريد بغداد ، ولا الوظيفة ، ولا كل شيء ٠

وبعد أن أحضر النادل الزجاجة التقطها ، وطفق يحسو من فمها ، ويكز على أسنانه بعد كل حسوة · ثم تابع بصوت حالم أصيل وهو يسترخي ويمدد ساقيه أمامه :

ــ سأسبح في دجلة · وأنام علـــى رمـل الجزر التي ترصعه ساعات طويلة · وسأترك الخمرة والدخان ·· أريد ان امتلىء بدم جديد ، وأستعيد حياتي التي كادت أن تضيع ·

وكان عبد الحميد آنذاك يتأمله باسمـــا · وعندما أنهى قوله علق عليه :

ــ أؤيدك على هذا القرار ·

ثم أضاف :

ــ وسأزورك حتما · السفر الـــى مدينتك لا يستغرق ساعتين ·

وتحدث صلاح بعد ذلــك عـــن طفولته وأحلامه بلهجة مؤثرة ، تبدو فيها كل كلمة وكأنها تكلفه مجهودا هائلا ·

وبقي عبد الحميد يتأمله بود محاولا تفتيت اعتكاره هذا· وعندما صمت عاد يسأله :

ــ وبعد ؟

ــ أتنوي استجوابي ؟

ــ لا · ولكـــن يعجبني الانصات اليـــك فأنت حقيقي وشاعري هذه الليلة كما لم تكن من قبل ·

ولم تكن في لهجة صلاح طاقـــة للمواصلة لـــذا ردد عبد الحميد :

ــ هيا انهض واغسل وجهك وتعال معي الليلة ، سآخذك

الى مكان تنسى فيه وضعك ٠

ونهض صلاح مستجيبا لاقتراحه ، ثـــم اتجـه صوب المغاسل متمايلا ، وقدماه تتعثران بالدغل ٠

فتح صنبور الماء وبدأ بالاغتسال ٠ وعندما فرغ من ذلك رفع رأسه وتطلع الى المرآة التي تعلو المغسلة فارتسم أمامه وجهه المبلل المخذول فأطلق ضحكة حادة جفل منها رجل هرم كان يتبول على مقربة منه ٠

★★★

كان الليل في منتصفه تقريبا ٠ وفـــي الطريق المترب الطويل الذي يربط نادي المحامين بشارع الامام الاعظم كان عبد الحميد وصلاح يترنحان من الخمرة والجحود ٠ وترفس أقدامهما اكوام التراب التي خلفها عمال المجاري ٠

قال عبد الحميد :

ـ سآخذك الى مكان مهم كما وعدتك ٠ دار فيهـــا ثلاث فتيات ٠ وستختار واحدة منهن لتمضي ليلتك الاخيرة في بغداد معها بدلا من فندقك الوسخ ٠ ثلاث فتيات كـــل واحدة منهن تساوي عشرا من هداك العجفاء التي صدعت رأسي بالحديث عنهـــا ٠

وهز صلاح رأسه بالموافقة ٠ وعـــاد صوت عبد الحميد للقول :

ـ يجب ان لا يهزمنا شيء ، وان لا نطأطىء رؤوسنا ، هذا ما أقوله لنفسي كلمـــا اسودت الدنيا بعينـــي ٠ فالغد

سيتمخض عن احداث كثيرة تعيـــد تـــرتيب الاشياء ترتيبا صحيحا ٠

ثم اضاف :

ـ هيا ارفع راسك ، وستجد أن ازمتك هذه مجرد كبوة صغيرة ربما لن تتذكرها أبدا ٠

وهز صلاح رأسه برضى وحماس ٠ وترك قدميه تدبان في الظلام شاعرا بأن لهمـــا ايقاعا منتظما كضربات القلب السليم ٠ وبدأ يصغي اليه فوجد في ذلك لـــذة صغيرة أخذت تبدد غيوم الحزن والانتكاس مـــن سمائـــه لتجعلها صافية بيضاء ٠

- ٢٨ -

من أوراق صلاح كامل
(٢ مارس ١٩٧٢)

ـ لا أصدق ان هذا قد حدث فعلا ؟

ـ ولكنه الواقع يا سامية ويجب ان تكوني شجاعة ٠

ـ لم ير حتى ابنه ٠ وقد وعدته بان اذهب الى بيروت في الصيف حتى يراه !

***

لقد مـــات اسماعيل العماري اذن ، انطـوت صفحته وراحت ٠ ولكن كيف يموت في قلبي ؟

لا ، لا ، سيظل معي واحدا من الشهود الابديين على ذلك التاريخ الساخن الذي كان فيه لهيب الحلم يبخر ماء العيون فيطفىء الضوء فيها ٠

لقد قال لي أحد الفدائيين الذين حملوا نعشه الى بغداد:

ـ لم اعرف انسانا أحب وطنه مثل اسماعيل العماري ٠
وقبل مقتله كان يدور في شوارع بيروت كالمجنون ، دون ان

يحس بالامان فيها · وقد حدثني كثيرا عن زوجته وطفله الذي لم يره ، وعن مدينته العمارة ، كما حدثني عن أصدقائه ومنهم انت · كان بشوق لأن يعود اليكم ، ولكن كبرياءه كانت تمنعه عن ذلك · وقد قدم طلبا الى القيادة في أيامه الاخيرة يرجوها فيه أن تنقله الى القرى الجنوبية في لبنان ليساهم في الدفاع عنها من الهجمات الاسرائيلية المتكررة ·

ثم عدل من وضع نقابه · وتأمل وجهي مليا بعيني صقر وهو يضيف :

ـ كان رحيله الى الجنوب في ظـــروف خاصة أعقبت تهديدات اسرائيلية في الضرب والانتقام · وقد وقع المحذور في حرب المائة ساعة في العرقوب · حيث استخدم العدو فيها فرق الكوماندوس وسلاح الدبابـــات وطائـرات الهليوكوبتر والطائرات المقاتلة · وقد لقي العـــدو مقاومـة ضارية ابان هجومه مما اجبره على تكثيف معداته العسكرية وزيادة عدد طائراته المقاتلة ·

ثم ترك طرفي كوفيته تنطرحان على ظهره كاشفا عـــن وجهه الصقري ليقول متابعا وهو يكز على أسنانه :

ـ منذ بدء المعركة استعان العدو بسلاحـــه الجوي في محاولة منه لتمزيق القواعد القتالية لثوارنا في مشارف الجبال المطلة علـــى بلدة الهبارية · ولكن الثوار تصدوا للمجنزرات المتقدمة ، وأخذوا يقصفون منطقة التقدم بوابل من قذائـــف المدفعية والصواريخ · وفي فجر اليوم التالي من الهجوم قتل اسماعيل العماري عندما اصابته اطلاقة في جبهته لم تمهله الا دقائق ·

وصفع بيده على جبهته حزنا وهو يعلن :

ـ لقد كنت بجانبه عندما مات ، ولكنه لم يستطع النطق بكلمة واحدة أحملها الى زوجته ورفاقه ٠

★★★

لم يحضر تشييع اسماعيل العماري من زملاء الكلية الا خليل الراضي الذي حضر بالطائرة من البصرة بعد ان ابرقت له اعلمه بالخبر ٠

كان التشييع مهيبا بدأ من ساحة الشهداء فـــي الكرخ ، وانتهى في ساحة المتحف ، وقد تماسكت باعجوبة حتى انتهت المراسيم كلها ٠ وقد حضرته زوجته ايضا وبعض أقربائهـــا اضافة الى عدد من فدائيي المنظمة التي ينتمي اليها ٠

قلت لسامية معزيا :

ـ لقد ارتضيت الارتباط بثائر نذر حياته للحقيقة ٠ وان استشهاده مفخرة لك ولابنك ٠

وردت علي وهي تداري دموعها :

ـ ولكنه مات يا صلاح فما حاجتي الى المفاخر ؟

★★★

عدت أنا وخليل الراضي الى بيتي ، وعندما تعرف على سميرة ، وحمل ابني بين ذراعيه قال لي وهو يتأملني بنظراته الطيبة :

ـ انا مطمئن لوضعك الان ٠

ثم غمزني وهو يتامل بطن زوجتي الكبير قائلا :
ـ يبدو انك على عجل في زيادة العدد ؟

وطاطات سميرة راسها خجلا ، فقلت له :
ـ حتى نغلق المصنع نهائيا ٠

وانطلقنا ضاحكين رغم حرارة الجرح ، فسالته :
ـ وأنت ماذا صنعت ؟

وعاد صوته الاخوي الحميم ليعلن :
ـ ما زلت أرفع شعاري القديم « السياسة والسياسة فقط » ٠

ـ أتريد الصدق يا خليل انني احسدك على حالتك ؟
وقال :
ـ ليست حالتي تدعو للحسد ٠٠٠ ولكنها حالة ارتكنت اليها تدريجيا ٠ وأنا على استعداد لتقبل كل المتاعب ، أما أنت يا صلاح فمشروع مناضل ممتاز ، بقي أن تعرف كيف تتصرف ٠
ـ ألا تعتقد بأنني أعرف ؟
ـ لا ٠

ـ كنت اقوم بدور الموازنة ، وأحل معظم الاشكالات في العلاقات السياسية أيام الكلية ؟
ـ كان دورا كبيرا بلا شك ، ولكن اليوم وعندما حلت هذه الاشكالات وبدا التعاون على اساس جبهوي فيجب أن تحدد موقفك ٠

واضاف :

ـ ان حكاية المستقل بالنسبة للمثقف او الفنان خرافة ٠ يجب أن تكون بجانب حتى لا تجد نفسك وحيدا ، وحتى تتعزز كلمتك ولا يحل بك ما حل بالاب يا ناروس ، انه المثالي الحي ٠

ـ اي يا ناروس هذا ؟

ـ اتذكر تلك الرواية المدهشة « الاخوة الاعداء » التي كنا نقراها مسلسلة في احـــدى المجلات المصرية ؟ انه أحـــد شخصياتها ٠

وقلت له :

ـ اوه ، لقد تذكرته ذلك الاب المسكين الذي شبهوه ايضا بالكلبة التي حارت بين صاحبها والذئاب ؟

ثم ابتسمت في وجهه وأنا اضيف :

ـ ولكنك غير موفق في التشبيه هذه المرة !

ولم يمتعض من ردي بل أجاب بلهجته المفعمة بالثبات :

ـ ما اريد أن اقوله لك ان الانسان يميـــل غريزيا الى الانحياز ، ولا بد أن يكون في جانب ٠

وقلت له وأنا أهز راسي موافقا :

ـ صدقت ٠

★★★

وبعد ان تناولنا غداءنا عدنـــا الى الحديث من جديد ، وحملت له نماذج من اعمالي في الملحمة ٠ وعندما تأملها قال :

ـ ما زلت اعتقد ان دور الفن ثانوي في حياتنـــا ، وان حاولتم اثبات عكس ذلك فانتم تغالطون أيها الفنانون الاصدقاء٠

ـ ربما كان دوره ثانويا اليوم كمؤثر حيـــاتي ، ولكن يجب أن نقيمه على اساس كونه جزءا من حضارة البلد ؟

وتمتم :

ـ على اية حال •

واضاف :

ـ لقد ودعت الفرشاة والالوان منذ تخرجي ، ولكن في المعتقل كنت أتلهى بالرسم أحيانا لقتل الوقت ليس الا •

وعندما ذكر اسم المعتقل تبادر الى ذهني سؤال كنت أود توجيهه اليه يوما :

ـ لم أفسر سر انضمامك لحركة الهور رغم ادانتك لهـا كاسلوب في النضال السياسي ؟

أجاب بعد ان رمى عينيه بعيدا عني ، واتكأ مباعدا مـــا بين ساقيه باسترخاء :

ـ كانت فترة يأس رهيبة ، ربما لمست بوادرها علي بعد مظاهرة ذكرى حزيران ، ولكنني اليوم متفائل جدا ، وواثق بأن الوطن سائر نحو الافضل •

ثم قطع كلامه ليبلع ريقه ، وتابع بعد ذلك بحماس :

ـ نريد أن نعيش ونبني ، كفى تبعثرا وقلقا •

ووضع ساقا على ساق وهو ما زال في استرخائه وقال:

ـ ثم انني اضيف لك نبأ ضمه الى قائمة معلوماتك عني•

ورددت بفضول :

ـ هيا اعلنه ؟

ـ سأتزوج قريبا مــــن أرملة رفيق لي · أحس وكأنني مسؤول عنها وعن طفليها ·

وفغرت فمي اعجابا بشموخه الرائع وتساءلت :

ـ أهكذا بطفلين دفعة واحدة ؟

وهز راسه وهو يقول :

ـ اختياري جزء من التزامي ·

ثم تمتمت من بين أسناني وأنا أردد بحسرة :

ـ سامية سعيد أرملة اخرى تضاف ؟

وردد :

ـ كنت آخذ على اسماعيل العماري تطرفه وتعــــامله المتشنج مع الامور ، فالعصر لا يتحمل هذا مطلقا ، وكذلك العمل السياسي ، أتدري بأنه حمل مرضه معــــه حتى الى المنظمة الفدائية التي عمل فيها وأحدث فيها انشقاقا طفيفا ؟

وقلت :

ـ ولكنه مات بشجاعة ؟

واغتنى صوت خليل الراضي بنبرة ألم وهو يجيب :

ـ لم تكن نهايته مفاجئة لي ، بل هي متوقعة جدا ، وهذا شأن أولئك الذين يسلكون الدروب الصعبة تدفعهم بطولة تقرب من الجنون ·

وعاد وأضاف مؤكدا :

ـ كان استشهاد اسماعيل العماري انتحارا ، أفهمت ؟

صدر للمؤلف

السيف والسفينة (قصص) ـ بغداد ١٩٦٦ (الطبعة الاولى)
ـ القاهرة ١٩٧٦ (الطبعة الثانية)

وجوه من رحلة التعب (قصص) ـ بغداد ١٩٦٩

الظل في الرأس (قصص) ـ بيروت ١٩٦٨

المواسم الاخرى (قصص) ـ بيروت ١٩٧٠

الوشم (رواية) الطبعة الاولى ـ بيروت ١٩٧٢
الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٧٤
الطبعة الثالثة ـ تونس ١٩٧٧

عيون في الحلم (قصص) ـ دمشق ١٩٧٤

الانهار (رواية) الطبعة الاولى ١٩٧٤
(قصص) الطبعة الثانية

ذاكرة المدينة (الطبعة الاولى) ١٩٧٥ ـ بغداد
(الطبعة الثانية) ١٩٧٧ ـ تونس

القمر والسوار (رواية) ـ الطبعة الاولى (بغداد) ١٩٧٦
الطبعة الثانيه (بيروت)

الخيول (قصص) ١٩٧٦ (تونس)

كتب عن المؤلف

١ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي بين الرواية والقصة القصيرة ـ رسالة دبلوم عليا مقدمة لمركز الابحاث والدراسات التابع لجامعة الدول العربية ـ تأليف عبد الرضا علي ـ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت

٢ـ عبد الرحمن مجيد الربيعي وتجديد القصة العراقية (تحت الطبع) تأليف سليمان البكرى

٣ـ الوشم للربيعي والرواية العربية الحديثة ـ رسالة ماجستير باللغة الايطالية للآنسة ماتيلدا غاليارد ى ـ قدمت الى جامعة فينيسيا..



الثمن : ٧٠٠ ق ل.